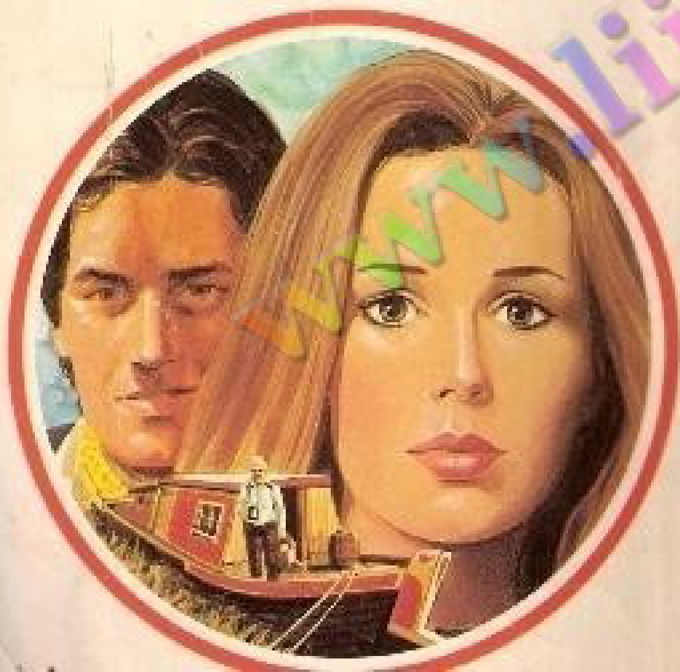
روايات عبير



آن ميثر

سمعاً وطاعة...



آن ميثر — سمعاً وطاعة...

روايات عبير

HARLEQUIN — "ABIR" — No 105

سمعاً وطاعة...

الطاعة والخضوع من الأمور التي يكرهها الناس على اختلاف انواعهم. فالخادم يكره اطاعة سيده والتلميذ يخضع لمعلمه مكرهاً...

الا ان العالم ينقلب رأساً على عقب من دون طاعة هذا وخضوع ذاك. وفكتوريا التي رحلت الى ابعد مكان لتتفادى الرجل الذي يسيطر عليها ويدعى مرديت، فجاءت تعمل مدرسة لابنة البارون فون ريشستين، وجدت ان الفتاة لا تحب الخضوع كثيراً كما وجد البارون انها هي لا تعشق الطاعة. وفي تلك القلعة المهجورة تقريباً، يحدث مد وجزر وتبرز الحكايات القديمة واشباح الماضي ويعود مرديت... ويتقرر في اللحظة الاخيرة مصير فكتوريا!

لبنان	٨ ل.ل	الكويت	٨٠٠ ف	اليمن	١٠ ر	السودان	٨٠٠ م
سورية	٩ ل.س	الإمارات	١١ د	تونس	١٦٥٠ د	U.K.	£1
الأردن	١٠٠٠ ف	البحرين	٦٥٠ د	ليبيا	٨٠٠ د	France	F 10
العراق	٥٠٠ ف	قطر	١٠ ر	المغرب	٩ د	Greece	Drs 150

١- في قطار الثلج

غادر القطار هوفستين في ساعة متأخرة من الظهيرة. الثلج الكثيف يحجب الرؤية فلا يكاد المرء يرى عبر نوافذ الحافلة الصغيرة.

وعلى الرغم من ذلك كان التواتر المستمر للعجلات مريحاً، وركام الثلج المجلد يشكل قبباً واسعة تدفع عالياً قممها القاسية شامخة بازدراء ازاء الخط الحديدي.

حاولت فكتوريا ان تقلب صفحات المجلة الشيقة التي في حضنها ومسحت الضباب من الزجاج وحدقت بجهد ولكن محاولتها ذهبت سدى ولم تتبين الا جزءاً زهيداً من المنظر.

تنهدت وألقت بالمجلة جانباً وتبادلت الابتسامة مع امرأة مسنّة يبدو عليها الاعياء صعدت الى القطار في هوفستين ويظهر من السلة الكبيرة التي كانت تحتضنها انها تسوقت بعض الحاجيات.

ولما كانت فيكتوريا لا تتكلم الالمانية بطلاقة والمرأة واضح انها نمساوية فلم تحاول محادثتها مع انها كانت تود سؤالها عن المسافة التي سيقطعها القطار لبلوغ ريشستين.

حاولت فيكتوريا الاسترخاء لتهدئة اعصابها بعد التوتر الذي أصيبت به منذ رحيلها عن لندن في اليوم السابق.

كان من المستحيل عليها ان تسترخي لأنها في لحظة تغلق عينيها يجول فكرها في جميع الجهات علها تجد أسباباً مقبولة لما وطدت العزم على القيام به.

وتساءلت: مقبولة ممن؟ منها نفسها أو من مرديث؟ ولم تفكر بمرديث وهو لم يظهر لها أكثر من اهتمام فاتر. على ان صورته كانت تقتحم مخيلتها مسببة هذا الشعور بالتوتر في تجاويف معدتها. عضت على شفتيها ثم تساءلت: وهل كانت تصرفاتها مسابقة لأوانها؟. لو لم تؤمن لها عرّابتها هذه الوظيفة لكان بمقدور أناس آخرين ان يؤمنوا لها عملاً آخر عنفت نفسها قائلة: ولم

تفكر الخالة لوري الا في اتقاذي من تعاستي عندما قامت بهذه الترتيبات والتي تضمره لا يمكن ان يوصف بأقل من نكران الجميل». مما لا شك فيه ان مرديت كان متزوجاً وأخفى هذه الواقعة عنها. ولا يمكنها ان تستمر في ارتباطها به ازاء هذا الأمر. كان عليه ان يلمّ بذلك عندما أخفى عنها زواجه. وتنهدت مسترسلة في تفكيرها.

كان عليه ان يبحث عنها عندما تراءى له انها غادرت لندن.

رنت فيكتوريا ببصرها مرة أخرى الى النافذة، انهم يقتربون من ريشستين.

بدون ريب كان القطار يسير ببطء في هذا الطقس الرهيب ولكن لا بد من الوصول. هزت كتفيها بلا مبالاة وجمعت أمتعتها وألقت في حقيبتها المجلات التي اشترتها لتسلى في رحلتها. وهكذا تكون مستعدة للنزول في محطتها عند بلوغها.

نهضت من مكانها واضافت الى ثوبها الأسود الفضفاض الذي كانت ترتديه معطفاً من جلد الغنم. تأكدت من نظرة عجلى ألقتها على المرآة في مقصورة القطار من تصفيف شعرها الأملس الكستنائي اللون. مع ان شفتيها لم تكونا مجملتين بالمساحيق لكنها وجدت انه ليس ضرورياً ان تبدو فاتنة لعملها مربية ابنة صاحب القصر. لم تكن جميلة بكل ما في كلمة الجمال من معنى. كانت صحتها الجيدة وبنيتها القوية تزيدان في قلق عينيها وفي محيط فمها الواسع.

جلست مرة أخرى ونزعت عنها قفازيها وتساءلت: من الغرابة ان أعمل مرة أخرى. عندما مات والدها وهي ما تزال طفلة ربتها خالتها لوري فلم تكن بحاجة لأن تحصل على عمل منتظم. لم يكن والداها ميسورين اذ كان أبوها معلماً في مدرسة. تبرأ من والدتها أهلها عند اختيارها زوجها. على ان خالتها لوري كان تذهب الى المدرسة مع والدتها وعلى الرغم من انفصال فيكتوريا عن أسرتها نفسها فقد ظلت خالتها أعزّ وأخلص صديقة لوالدتها. طبعاً قامت خالتها لوري بكل ما تستطيعه لتوفر لها السعادة، فقد ورثت عن زوجها المتوفى لقباً وأصبح وضع فيكتوريا كابنة أخت الليدي بتور مريحاً جداً. أحست في بادىء الأمر بمرارة حرمانها من والدتها، ولكن عطف وحسن رعاية خالتها لوري ما لبثا ان بددا شعورها باليأس.

كانت فتاة ذكية وبعد ان اجتازت بنجاح امتحانات الشهادة الثانوية التحقت بالجامعة وحصلت على شهادة في اللغة الانكليزية. أرادت ان تستند اليها لتحصل على وظيفة مدرّسة واستشارت خالتها فهزأت بفكرتها وقالت بنبرات حادة: «لا تضيعي وقتك في غرف المدارس، سافري الى الخارج واستمتعي بمباهج الحياة وبعدئذ اذا رأيت انك ترغبين حقاً في التعليم فلك ذلك. لقد تحمّلت متاعب الدراسة في المدرسة وفي الجامعة فلا تضيعي شبابك يا فيكتوريا؟».

ولكي ترضي عرّابتها من جهة ولأنها كان لا تزال حديثة السن ومفعمة بالحيوية من جهة أخرى عملت بما أشارت به خالتها واستمتعت بشبابها.

كان للخالة لوري شقة في المدينة ومنزلاً ريفياً في منطقة البحيرات. كانت تقضي الربيع والصيف في لندن حتى تكون حاضرة في كل المناسبات الاجتماعية. أوائل الخريف ذهبتا في رحلة بحرية الى الجزر اليونانية حيث فتنت بسحر تلك البلاد الجميلة الحافلة بالأساطير والمغامرات العاطفية. ورجعت الى لندن ناضجة لما ستخبئه لها الأيام، وهناك التقت بشاب اميركي يدعى مرديت هموند وبدأت جميع مشاكلها...

فتحت فيكتوريا حقيبة يدها وسحبت منها الظرف الحاوي على الرسالة التي حملتها الى النمسا. قرأتها مرة ثانية باهتمام كبير محاولة ان تكتشف شيئاً حول كاتبها. كانت معنونة بعبارة «قصر ريشستين» ومذيلة بتوقيع هورست فون ريشستين. انه لا يقل مرتبة عن البارون فعرّابتها أخبرتها بذلك نقلاً عن أصدقائها في النمسا الذين أمنوا لفيكتوريا هذه الوظيفة.

أطلقت ابتسامة خفيفة وأجالت نظرها في ما حولها. ساورتها الشكوك عن السبب الذي دعا البارون فون ريشستين ان يستخدم مربية في هذه الأيام التي ارتفعت فيها الأجور وقلّت ساعات العمل. على الأقل لم تكن تراودها أية أوهام حول المكان المنعزل. فقصر فون ريشستين حيث سيتوقف القطار دقائق معدودة. انتابتها رعشة وراودها القلق ولم يكن لها خيار في ذلك.

كانت ارتباطات عرابتها بآل فون ريشستين قاصرة على صداقة في أيام الطفولة مع ابنة عم البارون الحالي وهي بارونة كهلة ذات اطوار غريبة، معظم أوقاتها متنقلة بين لندن وغيرها من العواصم الاوروبية مستفيدة من

كرم ضيافة رفقائها.

والذي عرفته عن مقرها المقبل لم يكن مطمئناً، فموقع القصر المنعزل والمواصلات الصعبة وتربية بنت في العاشرة من عمرها وأصابها منذ فترة وجيزة مرض الشلل منعها من متابعة دراستها في المدرسة الداخلية ثم شفيت منه بعدئذ والتقارير المتعلقة بها كانت رهيبة. كانت قرة عين والدها فهو يغض الطرف عن جميع أخطائها.

بعد مضي ثلاثة أشهر على شفائها اضطر لاستخدام مربيتين لم تستطيعا إقامة علاقات طيبة معها. حدث احتكاك شديد مصم للآذان في عجلات القطار فارتمت فيكتوريا على حافة مقعدها وظهرت علامات الخوف فابتسمت المرأة في المقعد المجاور قائلة باقتضاب وبنبرة قوية: «ريشستين يا آنسة».

أطلقت فيكتوريا تنهيدة وأومأت شاكرة ونهضت.

فتحت فيكتوريا باب عربة الحافلة عندما توقف القطار وقفزت منها ثم استدارت لتحمل حقيبتها.

على مسافة قصيرة من ساحة المحطة تراءت لها الأنوار المشعة في القرية الواقعة على سهل واسع مرتفع يكون فيه المشهد رائعاً في نهار مشرق. على ان الثلج كان لا يزال يتساقط فانتابها البرد والتعب وصاحت وقد آلمتها الانفعالات النفسية والشفقة على نفسها. لم اكن أرغب في المجيء الى هنا بادىء الأمر. هل يعلم احد بأنني مبللة وارتعش من البرد وأكاد أموت متجمدة؟ فجأة سمعت صوتاً غريباً لم تدر ما عساه يكون. كان صوتاً مريباً صاخباً خشناً. بدأ الصوت يتجه نحوها، ربما كان شخص من القصر. ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها وتذكرت مشاهد السينما القديمة المرعبة عندما يكون هذا المدخل نذيراً بوصول الوحش المخيف.

استعادت شجاعتها وعندما ظهر الحمال أمامها قدمت اليه تذكرتها وعلائم المرح تبدو عليها. تناولها الحمال بصمت وكانت تعابيره متصلبة. قطبت فيكتوريا حاجبيها بلا مبالاة وامتنعت عن سؤاله عن مكان تبيت فيه وخرجت من المحطة مترقبة ما حولها.

أصبح الصوت اكثر شدة يتردد صداه في الهواء البارد المكسو بالصقيع ولم تكن مستعدة لتلقي ضربات الثلج الخفيفة المتطايرة حول وجهها،

حجبت حبات الثلج الصغيرة بصرها فتراجعت الى الوراء وتعثرت فوق حقيبة سفرها وسقطت على ركام ثلج كثيف. شابها شعور بالمرارة عندما تململت لتنهض. وثب رجل من حافلة المحطة وجاء مسرعاً اليها. ظنت في بادىء الأمر ان شعره أبيض على انها تيقنت الآن انه فضي جيل. كانت أهدابه وحاجباه سوداء وكانت الخطوط الكثيفة المحفورة قرب فمه تزيد في سني عمره. هز كتفيه ثم انحنى ورفع حقيبة سفرها وحاول ان يكمل سيره عندما بادرته بالكلام:

«من فضلك لحظة!».

استوى الرجل في وقفته. تقلصت عيناه وقطب وجهه قائلاً بلطف:

«أنت الآنسة فيكتوريا مونرو. ألست كذلك؟».

لوت فيكتوريا بعنف شريط حقيبتها اليدوية وقالت:

«ماذا لو كنت بالفعل فيكتوريا؟».

«تذهبين الى قصر ريشستين. انني من هناك».

كانت فيكتوريا لا تزال مترددة. لم يكن يخامرها أدنى شك بأنه بالفعل من القصر كما يقول ولكنها لن تركن اليه في حال وجود أي أثر للفساد في تصرفاته. كانت قد نهضت ترتجف بشدة وهي ساخطة. قال بنبرة خفيضة جافة:

«أرجوك المعذرة يا آنسة. لا شك انك علمت بوجوب الانتظار في المكتب».

ثنت فيكتوريا كتفيها وألقت نظرة شاملة عليه بغضب، وأجابت بنبرة باردة:

«لم أكلف بالانتظار في المكتب. ربما اخبروك بوجوب الحضور الى هنا في الوقت المحدد للاقائي».

تحدته عيناها السوداوان وفكرت بأنها لن تسمح لهذا السائق ان يوقفها عند حدها. ولئن كان الأمر كذلك فان نظرتها المحدقة أصيبت بنظراته الثلاثة فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه. أغاظ هذا الجواب فيكتوريا. ربما كان بسبب مبادرتها الخرقاء غير المألوفة بينما ظل هو هادئاً رابط الجأش. وتبين لها على مضض انه كان جذاباً فارع الطول، واسع الصدر ونامي العضلات، رمقته بنظرة ازدراء قائلة:

«كيف أتأكد من ذلك؟».

في تلك اللحظة ظهر الحمّال آتياً من جهة المكتب مدلياً مصباحه وقد أزعجه صدى الأصوات المتصاعدة. حدق في الرجل الواقف أمام فيكتوريا ورفع قبعته محيياً باحترام قائلاً:

«هذا هو السيد البارون».

وانحنى بلطف. كان وضعه مختلفاً جداً عن الطريقة التي تصرّف بها مع فيكتوريا فانتابها شعور عميق بالفزع عند سماع هذه الكلمات.

تابع الحمّال كلامه مع البارون بلغته الالمانية متحدثاً عن الجو البارد الذي يلف المنطقة. تألقت وجنتا فيكتوريا باحمرار شديد. انه البارون بنفسه. لم يكن المتكلم معها السائق كما تخيلت بل رب العمل.

كان في الثامنة والثلاثين من عمره او في الأربعين على الأكثر عندما تابعت عرّابتها الدراسة في المدرسة مع ابنة عمه التي تبلغ الستين. وبينما كانت فيكتوريا تحاول استعادة رباطة جأشها ووقارها تابع البارون حديثه مع حمّال المحطة ثم قال:

«ربما ترغبين بالدخول الى السيارة يا آنسة بعد ان تتأكدي من شخصيتي؟».

لزمت فيكتوريا الصمت ولم تجب بشيء اذ كانت تخشى ان ينزلق لسانها فيوقعها في المشاكل.

تميزت غضباً ازاءه لأنه كان السبب فيما حدث لها. وضع البارون حقيبة سفرها في صندوق السيارة واستدار ليجلس قربها. وبينما كانت مستغرقة في التفكير قال البارون:

«أخشى يا آنسة الا تتمكن من عبور الطرقات في هذا الوقت من السنة بدون ربط السيارة بسلاسل».

أومأت فيكتوريا برأسها بالموافقة ثم أجالت النظر حولها. شاهدت الثلج يضيء القرية جزئياً بينما كانا ينطلقان في موازاة الشارع الرئيسي. كانت الشاليهات ذات السطوح المنحدرة والمداخن التي ينبعث منها الدخان تعطي انطباعاً بالدفء والراحة. بدا لها ان الأهالي يصعدون في صفوف عبر مراعي الجبل المنحدرة ومجرد التفكير بأن هنالك اشخاصاً يعيشون ويعملون بعث الدفء في نفسها وأحست بالانتعاش يدب في أوصالها بدلاً

من الاستياء الذي انتابها في بادىء الأمر وأدركت انها كانت فظة على نحو غير ضروري. حاولت ان تصلح سلوكها فتجرأت على القول:

«يجب ان اعتذر لك يا سيدي البارون، طبعاً لم أكن على علم بهويتك».

وارتسمت ابتسامة خفيفة على فمها.

التفت البارون فون ريشستين وركّز نظره عليها ثم أعاد انتباهه الى قيادة سيارته وقال بنبرة ساخرة يشوبها الغيظ:

«أفهم من ذلك يا آنسة انكم تعاملون بهذه الطريقة الناس الذين ليسوا ارباب عملكم».

«طبعاً لا نعاملهم هكذا. أنا لست فتاة سليطة اللسان».

هز البارون كتفيه الواسعتين بلا مبالاة قائلاً:

«انت يا آنسة حادة الطبع ولا أرى بأي طريقة ستصبحين من أفضل صديقات صوفي».

«صوفي؟ هل هي ابنتك؟».

«هذا صحيح».

استوعبت فيكتوريا هذا الأمر... اذن هذا الرجل هو البارون فون ريشستين. انه أصغر كثيراً مما تصورته خالتها لوري والا لما تحمست لارسالها بعيداً عنها الى قصره الثاني في أواخر الشتاء.

اجتهدت فيكتوريا في فتح الحديث فوضعت وشاحاً فوق رأسها وقلادة حول عنقها وقالت:

«هل منزلك بعيد؟».

«انه ليس بعيداً. لكن يجب ان أنبهك انه ليس منزلاً، انه في الواقع قصر».

ثم ألقى نظرة عجلى عليها واستطرد قائلاً:

«هل أنت فتاة قوية يا آنسة مونرو؟ لا مكان في قصر فون ريشستين للنباتات الضعيفة ولوقايتها».

ضغطت فيكتوريا على شفتيها وتمتمت وهي تحبس انفاسها:

«فقط للنباتات الحولية شديدة القدرة على الاحتمال».

سمعها البارون فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه.

«بالفعل يا آنسة مونرو جميع الذين يعيشون فوق هذه الجبال أقوياء».

عندما أرادت ان تقطع الصمت المضني بادرته بالسؤال:
«كم عمر ابنتك يا سيدي البارون؟».
«عمرها تسع سنوات وقريباً تبلغ العاشرة. هل اعتدت على تدريس اولاد في هذه السن؟».
تأملت فيكتوريا في سؤاله واعترفت اخيراً قائلة:
«لم اقم سابقاً بالتدريس مطلقاً. عندي المؤهلات ولكنني لم استعملها».
كان هناك صمت مطبق. ولما ألقت نظرة عجلى عليه متوجسة خوفاً مما تبينته تراءى لها انه كان يهز رأسه مذعناً:
«هل هذا الأمر سيء يا سيدي البارون؟».
طرحت هذا السؤال لتشير الى شهادتها العلمية لأن هذه الفكرة خطرت بعدئذ ببالها. نظر اليها البارون وقال بشدة:
«يبدو ان صوفي محكوم عليها ان تكون ثقافياً دون المستوى العادي».
رفعت فيكتوريا حاجبيها متناسية في غيظها شهادتها العلمية وقالت:
«ماذا تعني؟».
رفع البارون كتفيه العريضتين ببطء وقال مفسراً أقواله بصدر رحب:
«انك ثالث مربية لها. الأولى كانت امرأة في الأربعين من عمرها خبيرة في تعليم الأولاد ولكن لا تستطيع العيش في العزلة كما قالت، وتركت المهمة بدون ان تصل الى قبض أجور شهرها الأول. وكانت الثانية فتاة مثلك مع خبرة ثلاث سنوات قضتها في تعليم ولدين أكبر سناً منها وكان من المفروض ان تجد الوظيفة بالنسبة الى صوفي عملاً سهلاً، ولكنها اعتذرت عن قبول مهمتها بداعي أعصابها لا تستطيع تحمل هذا العبء، وتركتها ايضاً».
ألقى عليها نظرة عجلى واستطرد قائلاً:
«والآن انت يا آنسة. انها وظيفتك الأولى في التعليم انك تقرين بانك لم تعملي قط وجليّ ما في الأمر انك عشت حياة اجتماعية نشيطة. كيف تتصورين انه بامكانك مواجهة قسوة الحياة في ريشستين بينما أخفقت مربيتان متمرستان؟».
«أفهم مما تقوله انني أجمع ما تركه الآخرون بسبب العزلة. انا لست

خائفة من العزلة يا سيدي البارون».
«حتى ولو كانت هذه هي السنة الاولى في وظيفتك بالتدريس. ألا تفكرين بأنك ستحتاجين الى بعض الراحة بعد عملك طوال النهار مع صوفي؟ اننا نفتقر في ريشستين حتى الى التلفزيون يا آنسة».
«يبدو انك لا ترغب في توظيف مربية لصوفي».
«انك لا تعرفينني جيداً بعد يا آنسة يجب على الانسان ألا يقفز الى الاستنتاجات».
احنت فيكتوريا رأسها ولم تنبس ببنت شفة ولكن علائم الغيظ كانت بادية على محيّاها في حديثها مع الرجل. وصلا الآن الى قمة منحدر شاهق وشاهدت فيكتوريا وادياً في الأسفل. كان ضوء القمر ينير تلك الأرجاء، وفي أقصى الوادي وراء المياه المتدفقة يجثم قصر فائق الجمال أبراجه تشبه أشجار الصنوبر الداكنة. بدأت فيكتوريا تلهث مذهولة مما لفت انتباه البارون اليها فسألها بسخرية:
«أليس هذا القصر جديراً بأن يكون موضوعاً لصورة رائعة؟ أليس فاتناً؟».
وضع البارون سيارته في مرآب داخل الأرض وبدأ بالانحدار من ذلك العلو الشاهق الى الوادي متمتماً:
«لا يمكن لأي انسان ان يحكم على الأشياء من خلال مظهرها الخارجي».
حاولت فيكتوريا ان تفهم كلام البارون. من الغرابة ان حديثها أصبح فجأة معقداً، وبطريقة ما كان في كلماته أكثر من مجرد سخرية وأخذ بها الفضول لحظة من الزمن. وما ان وصلا قاع الوادي وراحا يتسلقان الطريق المتجمد المؤدي الى القصر تملكها شعور بالرهبة.
دخلا القصر عبر بوابة ذات أبراج الى فناء داخلي مضاء بالمصابيح. ترددت فيكتوريا لحظة وأخذت تجيل النظر في ما حولها وأدركت ان البارون كان يحدق فيها ويزن ردود فعلها وقبل ان تتمكن من الكلام قال بنبرة جافة:
«هل هناك ما يزعجك؟ هل نسيت ابنة عمي تريزا ان تخبرك بأن ابن عمها البارون فون ريشستين هو تقريباً بحالة الفقر كالمزارعين الذين

يعملون على أراضيه لقاء أجر معين؟».

كانت فيكتوريا في وضع المدافعة والمعارضة في آن واحد فأجابت بسرعة:

«لا أعتقد يا سيدي البارون بأن رجلا يتحمل نفقات مربية لابنته هو شديد الفقر».

ارتسمت ابتسامة على وجهه وقال:

«ألا تعتقدين بذلك؟ حسناً سنرى. الاحظ انك تشعرين بالبرد، لا استطيع ان أعدك بأكثر من نار موقدة وبطعام عشاء حار».

ضاقت فيكتوريا ذرعاً ونفد صبرها من سخريته وسارت أمامه. لم يكن هذا القصر بضخامة القصور التي شاهدتها في انكلترا بل كان اشبه بكثير من المساكن المتوسطة الحجم. ينبعث من النوافذ المنخفضة نور واحد او نوران بينما الظلام يخيّم على القسم الأعظم من القصر. وصلا الى باب حديدي مرتفع. اسند البارون ذراعه على كتفها لتدفع الباب فاصبح في تلك اللحظة قريباً منها فتملكها شعور رهيب مرهف الى حد اللهاث ثم عاد الى مكانه فتلاشى منها ذلك الشعور. دخلا الى ردهة واسعة مضاءة بالكهرباء.

كان السقف عالياً وظليلا وهناك موقد ضخم تشتعل فيه جذوع أشجار كبيرة وكلبا صيد وثبا عند دخولها لتحية سيدهما وراحا يستشمان ثياب فيكتوريا بارتياب، وبقيت هادئة في مكانها خوفاً من ان يهاجماها. شاهد البارون ملامحها المتجمدة فناشدهما الرجوع الى موضعهما قرب المدفأة، سائلا بظرافة:

«اتفزعين من الحيوانات؟».

«حتماً لا أخافها وعلى الأقل في الحالة الطبيعية. انها أضخم واشرس من الكلاب العادية. أليسا كذلك؟».

رمقها البارون بنظرة غضب ومشى بخطى واسعة في أرض الحجرة الخشبية الملمعة وهو يصيح:

«ماريا، غوستاف، أنا هنا».

كانت فيكتوريا غير راغبة في الدنو من النار مع انها كانت بحاجة للدفء. أجالت النظر الى ما حولها خائفة منتظرة ظهور اشارة. لكنها لم

يكونا الساكنين الوحيدين في هذا القصر السحري. لاحظت وجود الرؤوس على الجدران والسيوف ورماح الصيد والنسيج المزدان برسوم وصور الناس والحيوانات الممسكة بعضها ببعض في معركة ضارية للبقاء.

وبينما كانت فيكتوريا تجيل نظرها في اتجاه السلم شاهدت رواقاً في أعلى المجموعة المتواصلة من الدرجات وكذلك ظلاً يتحرك في الظلام. عرتها رجفة باردة تسرّبت الى عمودها الفقري. سارت نحو الباب الذي ولجه البارون فاذا بكلبي الصيد يمدان رأسيهما ويتصاعد الهرير من حنجرتيهما. انتابها خوف مطبق فاسبلت عينيها وناضلت للسيطرة على اعصابها...

ومرّت اللحظات العصيبة ولم يعد الكلبان يهرّان وكانت النار تشتعل متألقة في المدفأة وفي الرواق ماتت الظلال.

بتصميم ثابت تحركت نحو النار، فاذا قدر لها ان تعيش هنا يجب ان تعتاد على هذه الحيوانات الضخمة. طبعاً لم تكن تخاف الكلاب ولو انها لم تتعامل معها قبلا.

لقد قيل وكلما ازداد الحيوان ضخامة كلما ازداد وداعة. انهم ولا شك يقصدون الحيوانات الأليفة ولكن من يستطيع القول بأن الكركدن هو حيوان وديع؟ وعلى كل فهذا يعني الحيوانات الأليفة وليس الذئاب الضارية. وعندما اقتربت منها رفعا بصريهما اليها دون ان يهرّا وتساءلت ان كان ذلك علامة حسنة.

تسربت الحرارة المنبعثة من لهيب النار الى جميع أجزاء جسمها ولم تنزع معطفها وبلوزتها عنها وكانت تشعر بوخز خفيف في أناملها من جرائها وكانت على وشك ان تنزع عنها المعطف المصنوع من جلد الغنم عندما شعرت بضجيج وراءها واستدارت فرأت مقابلها امرأة كهلة متشحة بالسواد وتنورتها تتدلى حتى تكاد تصل الى كاحلها.

«مساء الخير يا آنسة، تعالي انك ترغبين بدون ريب ان تري غرفتك أليس كذلك؟».

ارتاحت فيكتوريا كثيراً لأن المرأة تتكلم الانكليزية فأومأت برأسها علامة التحية ثم قالت بحماس:

«أين حقيبتي؟».

«غوستاف سيهتم بذلك يا آنسة تعالي كل شيء اصبح جاهزاً».

جمعت فيكتوريا معطفها وحقيبة يدها وألقت نظرة عجلى عميقة على كلبي الصيد ثم تبعت المرأة الكهلة ودهشت لأنهما لم يتسلقا السلم من الرواق بل سارا بدلا عن ذلك عبر الباب الذي ولجه البارون قبل ذلك الحين والذي بدا لفيكتوريا انه يقود الى ممر واسع.

أشارت ماريا بنبرة يشوبها النفور وقالت:

«غرفة الحمام واقعة في الدور الأسفل من المبنى. سيكون طعامك جاهزاً بعد مضي ربع ساعة اذا نزلت الى المطبخ يا آنسة».

ارتسمت على وجه فيكتوريا ابتسامة خفيفة وقالت:

«شكراً قولي لي متى ألتقي بالبارونة وبصوفي؟».

سألتها ماريا وهي تهز كتفيها استهجاناً:

«ألم تري بعد صوفي؟ انها في مكان من القصر سترينها في الوقت المناسب».

«والبارونة أين هي؟».

تجهّم وجه ماريا وقتمت وقد شاب نبرات صوتها النفور.

«البارونة فون ريشستين ليست هنا».

قطبت فيكتوريا وجهها وسألتها قائلة:

«ليست هنا اذن من هي التي هنا؟».

تلبثت ملامح ماريا وأجابت:

«أنت هنا يا آنسة وأنا هنا وغوستاف هنا والسيد البارون هنا».

ذعرت فيكتوريا. ستزداد غرابتها لكشف هذا الانفصال الزوجي. فما عدا ماريا ليس في البيت امرأة أخرى. لا عجب اذا كانت المربيتان الأخريان وجدتا المكان منعزلا. مع من يمكن التحدث؟ البارون؟ ماريا؟ غوستاف؟ أو صوفي؟

استوعبت الأمر بصعوبة وتحققت بأنها منذ نزولها من القطار في ريشستين لم تفكر مرة بجوديث هموند. وكانت ماريا تنتظر اشارة من فيكتوريا لتذهب فسألتها:

«هل هناك شيء آخر يا آنسة؟».

أومأت فيكتوريا بالنفي. كانت في حالة لا تستطيع معها ان تستوعب هذه الوقائع الجديدة فوراً ثم أردفت قائلة:

«سأنزل عندما أكون جاهزة».

«طبعاً يا آنسة».

ابتسمت ماريا وانصرفت وما ان أغلق الباب حتى استلقت واهنة على الفراش.

٢ - ماذا وراء الباب؟

سمعت صرير الباب واذا ببنت صغيرة تدخل الغرفة وتظهر امامها. تنفست فكتوريا الصعداء وارتدت بسرعة كنزتها باعتبار ان البنت التي دخلت الغرفة على مضض لا بد ان تكون صوفي. وشعرت ان صوفي تتوقع ان تجدها نائمة ولم يجل في خاطرها انها ستراها. حيّتها بالالمانية بابتسامة قائلة:

«صباح الخير يا صوفي».

وهنأت نفسها لتذكرها هذه الكلمات البسيطة. نظرت اليها البنت صامتة ولم تبادلها التحية ولم تحاول ان تفوه بأية كلمة. كانت هذه اللمحة الاولى من مهمة فكتوريا فقررت اعطاءها بضع دقائق لتعتاد عليها وبدأت بترتيب فراشها.

كانت الليلة السابقة مخيّبة للأمل لانها لم تر بعد وصولها الى القصر البارون ولا ابنه. وعندما غادرت ونزلت الى المطبخ بعد ان افرغت محتويات حقيبة سفرها وجدت نفسها ملزمة بتناول الطعام على منضدة المطبخ الحقيرة مع غوستاف زوج ماريا. وكان ذلك جزءاً من طابع القصر الغريب الزائف ولكنها أبت في هذا الصباح ان تكون مكتئبة. في أي حال فالطعام ولو انه بسيط كان ممتازاً وكانت تعامل بصورة أفضل قليلاً من الخادمة. أدركت بصورة جلية ان القصر لم يكن منزلا ريفياً مترفاً ولم يكن فيه من الخدم غير غوستاف وماريا.

ارتسمت ابتسامة على محيا فيكتوريا عندما مدت غطاء السرير على الفراش. لم يكن عند خالتها لوري أدنى فكرة عن أحوالها، ولم تكن ترغب بتأييد فكرة كونها شكت بظروف البارون. وأخيراً وجدت فيكتوريا في مهمتها المتوقعة نوعاً من التحدي ولا يضيرها انجازه كمحاولة أولى لفترة من الزمن.

أجالت النظر في وجه صوفي الصغير الرزين وفكرت بنفاذ البصيرة انها

حقا ليست وظيفة رديئة. وبعد ان رتبت فراشها استوت واستدارت نحو الفتاة. كانت صغيرة الجسم بالنسبة الى عمرها وشعرها اكثر دكناً من شعر والدها مضفوراً بجديلتين. كانت ترتدي ثوباً سميكاً من الصوف وبلوزة سوداء ضيقة مصنوعة من صوف محاك تبعث الدفء في ساقيها النحيلتين. لم تكن غير جذابة ولكن الألبسة البسيطة كانت تعطيها ملامح بنت مشردة. ودلكت فيكتوريا يديها الباردتين معاً وقالت بصوت منخفض:

«اننا نرتجف برداً هنا أليس كذلك؟ ألا ننزل الى الدور السفلي؟».

كلّمتها بالانكليزية لأنها كانت تعلم انها تفهمها وقد تابعت قبل مرضها دراستها في مدرسة داخلية حيث تدرس الانكليزية كلغة ثانية. تابعت صوفي النظر اليها بثبات ولم تتحرك باتجاه الباب. وعندما شعرت فيكتوريا بنفاد صبرها بادرتها الفتاة الصغيرة بسؤال واضح تماماً:

«هل تبغين المكوث هنا؟».

أخذت فيكتوريا على حين غرة ولكنها اجابت فوراً:

«طبعاً سابقى، لم لا؟».

هزت صوفي كتفيها الناعمين بلا مبالاة وقالت لها بوقاحة:

«هل قلت لك بأنك لن تمكثي هنا؟».

ضغطت فيكتوريا على شفتيها وقالت:

«أتريدين ان امكث؟».

«لن تمكثي، ستكونين كالمربّيات الأخريات، سوف لا تتحمل أعصابك هذه المهمة».

«لم تزعجني أعصابي قط. والآن هل سننهي هذا الحديث غير المثمر وننزل الى الدور الارضي؟».

أدارت صوفي لسانها فوق شفتها العليا وأجابت:

«كما تريدين».

لكنها لم تخرج من الغرفة وبدلا من ذلك مشت عبرها واتجهت الى منضدة الزينة وانتزعت منها زجاجة عطور تخص فيكتوريا وبدون ان تطلب الاذن منها حركت السدادة وتنشقتها، ولما حاولت ان تغلق السدادة تركتها تنزلق بين أناملها وتسقط على الأرض. لم تتحطم لأنها مصنوعة من البلاستيك ولكن محتواها سال على الأرض اللامعة.

وثبت فيكتوريا عبر الغرفة وقد اعتراها الذهول محاولة الامساك بأصابع مرتجفة بزجاجة العطور قبل ان يضيع جميع محتواها واستدارت باتجاه صوفي بعينين غاضبتين. كان عطراً مفضلاً لديها وطبعاً لا تستطيع تعويضه نظراً للمسافة الشاسعة بينها وبين أية بلدة أخرى.

ضغطت صوفي بيدها على فمها وصاحت قبل ان تستطيع فكتوريا الكلام:

«انني آسفة، انه حادث مفاجىء».

فتحت فكتوريا فمها ولكنها عادت فجأة فأغلقته. طبعاً هذا ما أرادته صوفي. كانت تأمل ان ينفذ صبر فكتوريا وتغضب وهذا ما يثبت بأنها سريعة التأثر ويمكن اثارتها بسهولة تامة. وربما كانت ترغب مباشرة بمعرفة مدى غضب فكتوريا.

بذلت فكتوريا جهداً عظيماً للمحافظة على رباطة جأشها وازالة انزعاجها فوضعت السدادة في الزجاجة واعادتها الى محلها واستدارت نحو البنت وقالت بهدوء:

«حسناً جداً. من الممكن ان تقع الحوادث المفاجئة. هل تحبين العطور يا صوفي؟».

قطبت صوفي في لحظة متمردة ثم استدارت وسارت نحو الباب. ولما وصلت اليه رجعت وقالت بسخرية:

«اعلمي بأنك سوف لا تمكثين هنا لأنك ستروعين كثيراً».

«ماذا تعنين بذلك يا صوفي؟».

هزت صوفي كتفيها بلا مبالاة وأجابت برد سريع وحاسم:

«ستكتشفين ذلك وتدفعين بقوة خارج الغرفة».

وفي أسفل السلم شمت رائحة الخبز الشهية. وعندما فتحت باب المطبخ داهمتها موجة من الحرارة. كان المطبخ واسعاً جداً تهيمن عليه منضدة طويلة حقيرة ومقاعد خشبية حولها ولفة من البصل معلقة على عارضة خشبية في سقف مائل ومقالي متلألئة تزيّن الرفوف وفي الموقد غلاية كبيرة تغلي ببطء واستمرار.

كانت ماريا منشغلة باخراج أرغفة من الفرن ووضعها فوق صينية، ارتسمت على محياها ابتسامة عندما دخلت فكتوريا الى المطبخ وقالت بعد

ان وضعت الصينية على المنضدة:

«صباح الخير يا آنسة. هل نمت جيداً؟».

انتعشت فكتوريا بالدفء الذي كان يشع في ارجاء المطبخ وأومأت برأسها ايماءة خفيفة علامة الموافقة وقالت:

«نعم شكراً. ان هذا المكان اكثر دفئاً من الدور العلوي».

«هل تشعرين بالبرد في غرفتك؟ هل خمدت النار فيها؟».

«نعم. هل أشعلها؟».

هزت ماريا رأسها وقالت:

«غوستاف سيقوم بذلك فيما بعد يا آنسة».

وسارت بضع خطوات حيث كان ابريق قهوة يدندن فوق موقد آخر.

«هل ترغبين بقليل من القهوة أو الشاي؟».

أجابت فكتوريا شاكرة:

«ان القهوة لذيذة».

ثم جلست بالقرب من النار الملتهبة:

«هل البرد هنا دائماً هكذا شديد؟».

سكبت ماريا بملعقة كمية من السكر في الكأس بدون ان تسأل فكتوريا عما تفضله وهزت كتفيها بلا مبالاة وقالت:

«في شهر ايار (مايو) تأتي أيام الدفء».

قالت فكتوريا وهي ترتعش:

«ايار (مايو)؟ نحن الآن في شهر اذار (مارس). انها مدة طويلة».

قالت ماريا مؤكدة:

«قريباً ستعتادين على هذا الطقس يا آنسة وتشعرين بالراحة».

ثم قدمت لها كأساً من القهوة السوداء القوية وأردفت تقول:

«تذوقي جيداً وستجدينه مقوياً ومنعشاً ومنشطاً».

رشفت فكتوريا قهوتها بارتياح. كانت قهوة طيبة. بدأت تشعر بالجوع. كان منظر الأرغفة الذهبية البنية مثيراً جداً للشهية. وضعت ماريا أرغفة الخبز على صينية من أسلاك معدنية وهيأت لنفسها محلاً قرب فكتوريا. وما ان بدأت تدهن رغيف الخبز بالزبدة وتضيف اليه بعض المربى حتى صاحت قائلة:

«البارون».

قطبت ماريا حاجبيها وقالت بنبرة متصلبة:

«نعم».

«الا يتناول الطعام هنا؟».

اخذت ماريا نفساً عميقاً وردّت بصورة سريعة وحاسمة وباستخفاف:

«تناول السيد البارون طعام الافطار قبل ساعتين يا آنسة».

«آه فهمت».

ثم اخترقت بأسنانها الرغيف وتذوقت باستمتاع حقيقي نكهته.

«من الغرابة انهم لا يصنعون الخبز هكذا في انكلترا».

ترددت ماريا وهي على مقربة من المائدة:

«هل رأيت صوفي يا آنسة؟».

تلاشى شيء من الرضى لدى فكتوريا عند ذكر اسم البنت. اجابت بحذر:

«نعم رأيتها. جاءت الى غرفة نومي في ساعة مبكرة من الصباح».

«ماذا قالت؟».

«كلاماً قليلاً».

«من الحكمة عدم الاكتراث بما تقوله صوفي. من المؤسف انها فتاة غريبة الأطوار. لا يستطيع المرء ان يدنو منها. انها تتخيل أشياء وهمية».

حدقت فكتوريا في ماريا بفضول ووجدت كلمات المرأة صدى لما تذكرته باكراً في هذا الصباح ثم استطردت قائلة:

«اخبريني هل سمعت انفجاراً هذا الصباح؟ أعتقد ان شيئاً من هذا أيقظني».

«انفجار يا آنسة؟».

رفعت فكتوريا كتفيها وقالت:

«نعم كطلقة من سلاح ناري».

بدت ماريا فجأة وعلائم الارتياح على محياها وأومأت بالموافقة:

«آه. ربما كان ذلك اذ ان غوستاف خرج باكراً ومعه بندقية».

استوعبت فكتوريا هذا الكلام ولكن ماريا أرادت ان تتصرف لانها على ما يظهر كانت تريد ان ينتهي الحديث عند هذا الحد.

أكلت فكتوريا رغيفين واستساغت الطعام وشبعت منه. وقبلت رشف كأس ثان من القهوة واذا بالباب الضخم الواقع في أقصى طرف المطبخ يفتح ويدخل منه رب عملها. كان في هذا الصباح متنعلاً حذاء عالي الساق ويرتدي معطفاً سميكاً مبطناً بالفرو. وهو يعتمر قبعة من الفرو القاها جانباً عند دخوله المطبخ وفك أزرار سترته وخلع حذاءه. رمقته فكتوريا بنظرة خاطفة ورنت ببصرها الى قهوتها لانها لم تكن ترغب بالظهور كفضولية وهو ينزع ملابسه الخارجية. رحبت به ماريا وهي متحمسة لاداء واجبها أكثر مما ينبغي وقدمت له القهوة فربت على كتفها بحرارة قائلا:

«ماريا أيتها المرأة الطيبة القوية».

ثم نقل اهتمامه الى فكتوريا بايماءة خفيفة وهو يمسك بشعره الكثيف الجميل وقال:

«آمل ان تكوني قضيت ليلة طيبة».

توردت وجنتا فكتوريا بالاحمرار الذي يشوب وجوه فتيات المدارس تحت وطأة نظرات عينيه الزرقاوين المتلألئتين المحدقتين وكانت غاضبة من نفسها لما بدا منها.

«من الضروري أن نتحدث في هذا الصباح يا آنسة مونرو اقترح ان تنتظري حتى أتم احتساء قهوتي ثم نذهب الى مكتبي».

«انني رهن اشارتك يا سيدي البارون».

ألقى البارون عليها نظرة متفحصة قبل ان يعود الى ماريا ويأخذ منها الابريق. تقدم الى الموقد وبدأ يدفىء يديه ومد رجليه فوق مقعد خشبي طويل وهو يحدق في لهب النيران المشتعلة. كان متشحاً بثياب سوداء تبعث الاضطراب بالنفوس.

أنهى شرب قهوته ووضع الكأس على المقعد واستدار باتجاه فكتوريا قائلا بايجاز:

«هل أنت مستعدة يا آنسة مونرو؟».

أومأت بالايجاب وسارت تتبع خطاه. وفي هذه الاثناء فتح باب المطبخ مرة أخرى ولكن من الردهة التي تقود الى غرفة فكتوريا وجاءت صوفي ايضا وعليها ملامح الفرح. كانت فكتوريا قبل ذلك تفكر بمكان صوفي لانها لم تكن هناك قبلا. هتفت قائلة:

«أبي».
عندها شاهدت والدها واندفعت نحوه وطوقته بشدة بذراعيها الناعمتين قائلة :
«والى أين ذاهب؟».
قال لها والدها بلطف وهو يحل نفسه من ذراعيها المتمسكتين به :
«تكلمي بالانكليزية يا صوفي أنا ذاهب الى مكتبي وسأناقش مع الآنسة مونرو أجور تعليمك».
رجعت صوفي الى ذراعي والدها وقطبت أنفها نحو فكتوريا ولم يعترض البارون عليها.
«لا أريد ان أدرس يا أبي. أريد ان أخرج معك. هل يمكنني ذلك يا أبي؟».
«هل ترغبين يا صوفي بأن يقال ان صوفي فون ريشستين غير ذكية وغير مثقفة وأمية؟».
ثم عانقها بلطف مضيفاً :
«ألا ترغبين ان أكون فخوراً بك؟».
«طبعاً أريد ذلك ولكنك تستطيع ان تعلمني جميع ما أحتاج اليه».
«كلا يا صوفي».
«لماذا؟».
«لا وقت عندي. انني متأكد ان الآنسة مونرو ستكون مدرّسة ممتازة. حاولي ان تكوني طيبة معها وان تتعلمي».
«انك لا تهتم بي».
شعرت فكتوريا بأنها غير مرتاحة. ورفعت بصرها الى ماريا. كانت المرأة المسنة تلقي نظرة عجلى يشوبها القلق وكانت فكتوريا تشعر بأن هذا المشهد تكرر سابقاً مرات عديدة. تجهمت ملامح البارون ازاء ابنته وقال :
«هذا ليس صحيحاً يا صوفي. أنا لا أستطيع بمفردي ان أكرّس نفسي لتثقيفك. عليّ واجبات كثيرة نحو القصر كما تعلمين. لا يمكنني ان أكون معلمك الخصوصي علاوة على ذلك من الأفضل ان تستفيدي من خدمات مدرّس محترف».
ألقى بنظرة عجلى كئيبة لجهة فكتوريا وتأكدت انه تردد بالقائها متعمداً

ان يذكرها بأنها لم تكن ذات خبرة في التعليم. مسحت صوفي عينيها بيديها وقالت :
«اذهب عني بعيداً لا أريد ان أراك بعد اليوم».
أجال البارون نظره فيها لفترة طويلة واستدار مشيراً الى فكتوريا بأن تسبقه وتخرج من الغرفة. قامت بما أملاه عليها البارون. وكانت عينا صوفي مركزتين عليها عند ذهابها.
أغلق البارون الباب وراءه وأشار الى فكتوريا بأن تجلس على المقعد القريب من النار. ثم جلس قرب المنضدة وأخرج سيكاراً من علبة خشبية منقوشة فأشعله وبدأ يدخنه قبل ان يبدأ حديثه. كانت نوافذ المكتب تطل على جهة من القصر وباستطاعة فكتوريا ان تشاهد وهي جالسة في مقعدها المياه المتدفقة في الجدول والمنظر الشامل للأشجار المتجمدة ومنحدر التل بين قمته وسفحه. كانت الغرفة رائعة جداً وبدأت فكتوريا تشعر بالانتعاش من الدفء والراحة في مقعدها الوثير. عندما بدأ البارون بتدخين السيكار وجد لذة في ذلك فألقى عليها نظرة عميقة وقال مداعباً :
«انك مذهولة يا آنسة مونرو؟ كنت تفكرين بأنه لم يكن عندنا الا كراسي نجلس عليها وجدران متصلبة نحدق فيها؟».
«اذا كنت فكرت بذلك فلأنك انت الذي أوحيت به».
«انني متأسف. ربما كنت قاسياً ازاءك ولكن من الأفضل ان يفكر المرء بالأسوأ عند بداية العمل. فلو كنت قدتك بطريق يختلف تماماً عن ذلك لكنت تروعت، ألا توافقينني على ذلك؟».
ارتفعت شفتا فكتوريا وأجابته بلهجة تتسم بالمقاومة :
«هكذا تجعلني اعتقد انك بربري يا سيدي البارون؟».
«كلا هذا لم يكن اطلاقاً. على انه يجب ان تتأكدي منذ الآن بأن ما يمكننا ان نقدمه لك ليس هو نمط الحياة التي اعتدت عليها».
«انك لا تعرف ما هي المعيشة التي اعتدت عليها يا سيدي البارون».
«كلا. لم أمض حياتي هنا في ريشستين يا آنسة. يمكنني ان اميّز القماش الصوفي الناعم عندما انظر مثلا الى كنزتك الصوفية الخليطة وكذلك فان بنطالك غير مصنوع من الغزل الصوفي الرديء».
«لا يمكنك ان تحكم على شخص من خلال ثيابه».

«كلا لا يمكنني ذلك. أنا أقبل بهذا القول لذلك فاني اريد ان اخبرك، على انني اجازف بالقول بأن المربيات اللواتي قبلك كنّ مهيئات للمهمة التي تنتظرك أكثر منك».

شعرت فكتوريا بانها قد اهينت فهتفت قائلة بدون تفكير:

«كيف يمكنك قول هذا الكلام بينما لم تستطع واحدة منها النجاح في مساعيها؟».

رفع البارون حاجبيه الداكنين وقال:

«أرى انك يا آنسة تتبنين وجهة نظري».

قالت بحدة وهي تضغط على شفتيها:

«لماذا؟ لأنني لم أراع الاحترام الواجب لشخصيتك؟».

لمعت عينا البارون بالغضب وتطاير الشرر منها وقال بنبرة تشوبها الخشونة:

«ستترك مسألة مركزي على حدة».

لاحت علائم الانكماش على ملامح فكتوريا فتمتمت باضطراب:

«كما تريد».

ثم نهضت منتصبة على قدميها وأجالت نظرها في الأوراق المنثورة على المنضدة فشاهدت رسالة عرفت مباشرة بأنها من عرّابتها.

فاجأها البارون بالسؤال وهو يحدّق فيها:

«لماذا رغبت بمغادرة لندن يا آنسة؟».

اجابت فكتوريا بلطف وهي تشبك أناملها:

«هل لهذا الأمر أية اهمية يا سيدي البارون؟».

أمسك البارون بالرسالة بين يديه وقال:

«اذا كان سبب مجيئك الى ريشستين هو الفرار من شيء بغيض فيجب ان اكون مطّلعاً على ذلك».

حدقت به فكتوريا وصاحت قائلة:

«لماذا؟».

«اذا حدث المستحيل وسارت الأمور على ما يرام من غير المستحب التفكير بانك قد تتركينا اذا انحلّت مشكلتك».

«على أي شيء تستند بقولك هذا؟».

«رسالة عرّابتك مبهمة والانطباع عند قراءتها يوحي بأكثر مما قيل الآن. ومع ذلك بما انك تبادين نافرة. اعتبر ان هناك قضية شخصية واثقاً بانه ما من شيء يمكن ان يورّطنا في مشكلة».

ضغطت فكتوريا على أصابعها وهي مستشيطة غضباً ولكنها لم تجب بشيء. فلا شأن لها بما يفكره البارون وسيبرهن الزمن انها جديرة بالمهمة. وانه سوف لا يشكو من اي عمل تقوم به. أدركت بأن حياتها في لندن كانت تقهقراً ووجودها في ريشستين هو الحقيقة بالذات.

ان قلقها على فراق مرديث على نحو مفاجيء أقل أهمية بالنسبة اليها من النجاح في مهمتها كمربية. لقد رفضت الليلة الماضية في خلوتها التفكير به او ربما أحست ببعض وخزات الضمير ولكن ما يعيد الطمأنينة الى نفسها ان قلبها لم يتحطم كما كانت تعتقد قبلا.

ان ذكر خيانة مرديث لها لا تزال تؤلمها. ولا خطر على كبريائها في هذا المكان البعيد اكثر من ألف ميل عن اي شخص عرف بعلاقتها.

كانت عرابتها على حق عندما قالت ان ألم فكتوريا سببه انها ستبدو حمقاء وليس ألماً حقيقياً ساحقاً للقلب. اتكأ البارون على اطار الموقد وهو يرمقها بشدة وبدأ يقول:

«عليّ ان أحذرك بأن صوفي ليست من البنات اللواتي يمكن التعامل معهن بسهولة وأنت عالمة بأمرها بعد هذه الضجة الصغيرة التي حدثت بصورة مبكرة».

تفرست فكتوريا في أظافر أصابعها ولم تستطع ان تجابه هذه النظرة المحدقة الى النافذة فاكتفت بالقول:

«نعم».

«بدون ريب انك يا آنسة تعتبرين ان موقفي منها مؤسف ويفتقر الى الحزم».

أطلقت فكتوريا تنهيدة خفيفة وتساءلت ما عساها ان تجيب ولكنها جازفت وقالت على مضض:

«أعتقد ان صوفي ابنة وحيدة».

«كم أنت لبقة بجوابك؟ ليس مرد ذلك كونها وحيدة. عندما مرضت صوفي بذلنا في سبيلها كل عناية ممكنة. كانت أتفه رغبة لديها بمثابة امر

واجب التنفيذ. انها عزيزة جداً عليّ. طبعاً افسدتها بالافراط في التدليل والآن هذه هي النتيجة».

«كم كان عمر صوفي عندما أصبحت مريضة يا سيدي البارون؟».

«كانت في الثامنة من عمرها قبل الآن بثمانية عشر شهراً وابلالها من الفالج كان لا يقل عن اعجوبة. لا يمكن ان تتصوري مبلغ الارتياح الذي شعرت به عند شفائها وبدا لي لفترة من الزمن انه من المستحيل ان تصبح مرة اخرى فتاة طبيعية».

«وزوجتك البارونة؟».

«لسنا في معرض الحديث عن والدة صوفي. والآن علينا ان نبت في خطط المنهج الدراسي».

احمرّ وجه فكتوريا وتركته يوجه حديثه نحو الأمور الثقافية وهي ان يكون التدريس في هذه الغرفة اي في مكتبه حيث تقوم المنضدة الكبيرة للقراءة والكتابة ومراجع كثيرة في الزوايا الملأى بالكتب. رأت كتباً مدرسية باللغتين الالمانية والانكليزية تستطيع من خلالها ان تزن مقدرة صوفي والتجهيزات الأخرى الضرورية لتأمين المواد الكتابية كل ذلك كان في ادراج المنضدة.

عندما أكمل البارون تعليماته المتعلقة بصوفي نهضت فكتوريا مستأذنة بالانصراف ولكنه أشار اليها بأن تبقى في مكانها فعادت وجلست في كرسيها واستطرد قائلا:

«من الضروري ان أبيّن لك وقت الراحة الذي ستتمتعين به وكيف ستقضينه. اذا كنت تفضلين تناول الطعام في غرفتك فأنا على استعداد لاتخاذ الترتيبات الضرورية لتهيئة صينية تؤمن لك ذلك».

«كلا لا ارغب بذلك. لا بأس بالأكل في المطبخ».

ثم توقفت كانت على وشك القول بأنها تفضل الرفقة على العزلة.

«لقد فهمت يا آنسة. لا تعتقدي اني بدون مشاعر، أنا أيضاً بحاجة احياناً الى رفقة الآخرين».

عاد البارون للتكلم عن الأوقات الفارغة فاستعادت فكتوريا رباطة جأشها.

«طبعاً ستكونين غير مشغولة بالعمل كل يوم بعد انتهاء الدروس التي

ستكون ساعتين بعد الغداء. لكنني سأكون ممتناً لك اذا اعتبرت نفسك رفيقة صوفي لجزء من النهار».

احمرّ وجه فكتوريا وقالت بتوتر:

«لا حاجة للاشارة الى هذا الموضوع. أرغب من كل قلبي ان أعامل صوفي كصديقة طالما هي ترغب في ذلك. اما بخصوص الوقت الذي أكون فيه غير مشغولة فعندما أرغب بشيء، سوف أطلبه دائماً منك».

«وعلى الرغم من ذلك اجد من الضروري الا تشعري بأنك دائماً منهمكة في اداء وظيفة ما. اني أقدر اقتراحك ولكن يمكن ان تجدي القيام بوظيفة في أسرة مرهقاً».

نهضت فكتوريا مرة أخرى وخرجت بخطى واسعة نحو الباب وقبل ان تدير المقبض قال لها:

«شعرك طويل جداً».

لم تكن تتوقع هذا التعليق مطلقاً فاستندت الى الباب وقد تملكها الذهول وغمغمت والدمع يشع في وجهها.

«لماذا؟».

أدار البارون ظهره اليها محدقاً في اللهب.

«لا توجد حولنا يا آنسة صالونات تجميل للسيدات فمن الأفضل ان تبقي على شعرك قصيراً».

تجهمت ملامح فكتوريا وبصوت متقطع قالت:

«هل هذا طلب أم أمر؟».

أجاب البارون بنبرة تشوبها الكآبة.

«لا هذا ولا ذاك. كانت مجرد ملاحظة، هذا كل ما في الأمر يا آنسة».

«اني على استعداد تام لتجميل شعري بنفسي يا سيدي البارون. هل هذا كل ما في الأمر؟».

«نعم هذا كل ما في الأمر».

هزت رأسها هزة خفيفة وفتحت الباب وخرجت من الغرفة. يا للرجل الغريب الأطوار. وأية أهمية لشعرها بالنسبة اليه؟ رفعت كتفيها وقد ساورتها الحيرة ومشت في موازاة الممر عبر الردهة الواسعة. وما ان دخلت هذه القاعة الفسيحة حتى رأت كلب الصيد يحوم حولها محدقاً فيها. تملكها

الرعب وشعرت بدقات قلبها تتصاعد. عقدت العزم على ان تكون رابطة الجاش فتشجعت واجتازت الردهة وبعد ان اغلقت الباب وراءها أطلقت نفساً عميقاً مرتعشاً بالارتياح. سارت نحو المطبخ علّها تجد صوفي وتحدثها عن الترتيبات المتخذة بشأنها فلم تجد غير غوستاف وماريا. كان غوستاف يشرب القهوة ويدخن غليونه. كان رجلا عملاقاً ذا شعر كثيف رمادي وقسمات وجه اسمر مشوّه.

اومأ برأسه اماءة خفيفة محيياً فكتوريا بلطف فردت بمثلها ثم قالت لماريا:

«اين صوفي؟ ظننت انها هنا».

أطلقت ماريا تنهيدة خفيفة وقالت:

«أظن يا آنسة انها خرجت. بعد ان ذهبت مع والدها انتعلت حذاءها العالي الساق وارتدت فراءها وربما تجدينها في الاسطبل مع اوتو والس».

سألتها فكتوريا وقد استولى عليها الذهول:

«اوتو والس. من هما؟»

«فرسان يا آنسة. لم يبق من الخيل الا اثنان فقط».

«لقد فهمت. سانتعل حذائي العالي الساق واذهب لأراها».

قال غوستاف مومئاً برأسه بارتياح:

«نعم يا آنسة».

أذعنت فكتوريا وخرجت من المطبخ وصعدت الى غرفتها لترتدي ثيابها الدافئة. ارتقت درجات السلم وقد اعتراها الذهول من ضخامة جدران القصر. تصاعد صوت من الدور السفلي وتمنت لو انها اصطحبت معها جهاز الراديو.

تناهى الى سمعها فجأة صوت صادر عن احدى الغرف المتصلة بشرفتها فغمرتها موجة من الخوف انسابت في عمودها الفقري. ظنت انها وحدها في البرج الصغير. وبما انها تعرف جميع من في المنزل سبب لها الصوت شعورا بعدم الارتياح. لم يكن في القصر احد لذلك فمصدر الصوت لا يمكن ان يكون الا من الفئران والجرذان. الا اذا كان نبضها انخفض قليلا او ان صوفي تحاول اخافتها.

تردد الصوت مرة أخرى وبصورة أكثر صلابة. مهما كان مصدره

فسينتابه التعب وهو ينتظر بدون جدوى ان تجيب عليه. فكّرت وقد نفد صبرها ربما كانت صوفي ولا أحد سواها. لا يمكن ان يكون البارون ومنذ لحظات تركت ماريا وغوستاف.

سرت قشعريرة من الخوف في جميع انحاء جسمها فمهما كان الشيء يجب ان تكتشفه بنفسها والا لما نعمت براحة البال. بخطوات خفيفة يشوبها التردد والاحجام عبرت فكتوريا سلم المبنى الى الباب ووضعت اذنها على لوح الباب مصغية بانتباه شديد فاذا بضجيج قوي وراء الباب يتمثل في اطلاق الأنفاس ووقع الاقدام والعويل المستمر.

تروعت فكتوريا ورجعت خطوة الى الوراء ثم تشجعت وعقدت العزم على تحريك مقبض الباب ودفعت الباب نحو الداخل وهي موجسة من وقوع كارثة رهيبة عليها. وفي لحظة من الزمن كانت تشعر بأن لا أمل لها بالنجاة وان قلبها يكاد يتوقف من الرهبة. كانت ترتجف وتحاول ان تتشبث بالباب واذا بجسم ضخم مكسو بالفراء يندفع فرحا بقوة نحوها يلعق وجهها بلسانه القرنفلي الكبير.

٣- طبيب الثلوج

كانت فكتوريا تهتز وقد تملكها الفزع لكنها ارتاحت عندما أحاطت بذراعيها جسم الحيوان الضخم الودود.

دفعت فكتوريا كلب الصيد بعيداً عنها وهزت رأسها بوهن ضاغطة بساعدها على جبينها الحار. اما وقد عاد اليها رشدها وبدأت تفكر بالعقل السليم فتيقنت انه من الصعب جداً ان يكون الكلب قد أقفل الباب على نفسه داخل هذه الغرفة، وعلاوة على ذلك فان الباب كان دائماً مغلقاً وفجأة تذكّرت علائم الرضى التي بدت في عيني صوفي عندما التقت بها وبوالدها في المطبخ لذلك قد تكون هي التي قامت به.

عرت فكتوريا موجة عارمة من السخط هزت أوصالها عندما تذكرت تلك اللحظات الرهيبة التي قضتها قبل فتح الباب. كم تمنت ان تنقض على الاصطبل وتقبض على صوفي وتجلدها بالسوط. طبعاً انها لا تستطيع ذلك. لا سلطة لها على ضرب صوفي. سبيلها الوحيد هو عرض الأمر على البارون والالتماس منه بأن يتصرف معها بالطريقة التي يراها ملائمة.

فتحت باب غرفة نومها ومشت فيها بخطى وئيدة. وبعد تفكير عميق تراءى لها انها لا تستطيع عرض الأمر على البارون. لم تكن في طبيعتها تحب سرد القصص ومن المحتمل ان يكون ذلك ما كانت تأمله صوفي، وهذه الأخيرة تستطيع نكران كل شيء. من هو الشخص الذي يستطيع ان يؤكد ان البارون سيصدق هذه او تلك. قد يظن انها اخترعت القصة بكاملها في محاولة للاساءة الى صوفي. عندما أصبحت جاهزة خرجت من غرفة النوم وبدأت تنزل درجات السلم الملتوية. كان كلب الصيد يتبعها بخنوع. ارتسمت ابتسامة على شفتيها. لقد أمنوا لها حاشية جاهزة لخدمتها. تبعها الكلب حتى المطبخ فألقت ماريا عليه نظرة تشوبها الحيرة وقالت له بنبرة حادة:

«الى الوراء فريتز».

هزت فكتوريا رأسها وقالت بسرعة:

«اتركيه لا بأس اذا حضر معي».

«فريتز وهلكا هما كلبا السيد البارون. عليك ان تستأذني منه يا آنسة».

قال غوستاف بحدة:

«الكلاب بحاجة الى التمرين. اتركي الآنسة وشأنها يا ماريا. لا ضرر بأن يأتي فريتز معها».

هزت ماريا كتفيها استهجاناً ورجعت الى مخبزها. خرجت فكتوريا من الباب وأغلقته وراءهما بإحكام وهي مسرورة من رفقة الكلب. ربتت بلطف على رأسه وسارت عبر الفناء ثم دلفا الى احد أطراف القصر ثم عبرا طريقاً الى الفناء الداخلي حيث شاهدت الاصطبل قبل ذلك. كان الهواء بارداً ومؤذياً. التقطت فكتوريا حفنة من الثلج وألقت بها على فريتز فبدأ ينبح وتراءى لها وهي تقهقه ان فريتز تخيّل انها منقذته وولاؤه الطبيعي انتقل مؤقتاً اليها.

اخترق صدى الضجة جدران الاصطبل وبرز فجأة وجه شخص صغير مكسو بالفرو وقف منتصباً يراقبها فتوقفت فكتوريا عن مداعبة الكلب لتستطيع مواجهة مهاجمها فسمعته يطلق هريراً خفيفاً. وحدّقت به فرأته يحدق في صوفي وعلائم الحقد تبدو عليها. كان هذا دليلاً واضحاً على ان صوفي هي التي سجنت كلب الصيد في الغرفة.

شابت ملامح وجه صوفي علامات التمرد عند اجتيازهما الفناء متجهين نحوها ورأت ان الطريقة المثلى في الدفاع هي الهجوم فقالت بحدة:

«والدي وحده هو الذي يسمح لفريتز بالخروج يا آنسة. سيستاء كثيراً عندما يكتشف انك خالفت أوامره».

نظرت اليها فكتوريا بهدوء وقالت لها:

«وماذا لو قلت لك بأنني حصلت على اذن من والدك بجلب الكلب الى هنا».

تجهم وجه صوفي ساورها الحذر وسألت غير مقتنعة بصحة الأقوال:

«أنا لا أصدقك يا آنسة».

هزت فكتوريا كتفيها بلا مبالاة وأوحت اليها برفق بما يلي:

«لماذا لا تسألينه؟ قولي له انني وجدت فريتز المسكين مقفلاً على نفسه في

احد أبراج الغرف وعندما اطلقته اصر على ان يتبعني».

ازداد تجهم وجه صوفي فقالت:

«تعتقدين انك ذكية جداً».

«كلا بل ربما أذكى منك يا صوفي. والآن لدي تعليمات من والدك بخصوص تعليمك. اقترح ان نذهب الى مكتبه ونبدأ باكتشاف مدى ذكائك الحقيقي».

نظرت صوفي اليها وهي تستشيط غضباً وبصمت استدارت واندفعت بطريقها متجاهلة تماماً أقوال فكتوريا.

وقفت فكتوريا تجيل نظرها في الهضبات المتجمدة التي تسرّب صقيعها الى اخمص قدميها وبدأت تشعر بالهواء البارد يدب في أوصالها فرجعت مسرعة الخطى الى البوابة المقوسة. كان فريتز قد تعب من الوثوب حولها طرباً، يسير في أثرها عندما اجتازت الفناء الى المدخل الرئيسي للقصر المؤدي الى مكتب البارون. أزالت فكتوريا الثلج عن ثيابها ونزعت عنها وشاحها وأجالت نظرها فيها حولها لتلتقي بنظرات البارون البغيضة.

كان جالساً قرب المدفأة الضخمة، ولهيب النيران يحوّل لون شعره الى ذهبي متوهج. وكلب الصيد الآخر هلكا جالساً قربه بدون حراك. عندما رآهما فريتز قفز نحوهما بفرح وهو يحتك بساقي سيده. رفعت فكتوريا معطفها وقالت بلطف:

«قمنا بنزهة أنا وفريتز. انه حقاً لمنعش التنزه في الهواء الطلق».

تحرك البارون ورأت فكتوريا ان صوفي كانت جاثمة فوق مقعد خشبي قرب المدفأة تدفىء رجليها. كانت تبدو على ضوء الجذوع المشتعلة وكأنها قطة. ألقت على فكتوريا نظرة وقحة ثم تطلعت الى والدها بهيام. قال البارون لها بنبرات حادة:

«هل فكرت بأن تسخري مني الليلة الماضية يا آنسة؟».

تجهم وجه فكتوريا عند سماعها ملاحظته المحيّرة فأجابت وهي تهز رأسها:

«أخشى اني لم أفهم ما تقصده يا سيدي البارون».

طوى البارون ذراعيه وقد بدا السيد الاقطاعي في كل ذرة من ملامحه. قال بنبرة كئيبة:

«الكلبان، تظاهرت بالجبن أمامها والآن تبدين بأحسن حال مع فريتز حتى انك خالفت أوامري المتعلقة بالحيوانات».

أجابت فكتوريا بغضب واقتضاب:

«اذا كنت لا تعير اي اهتمام لما أقوله فيبدو انك تريد ان تجادل حول مسألة تافهة. لم يكن خوفي في الليلة الماضية سوى حقيقة بصورة مطلقة. ولكن كما ترى اصبحت وفريتز صديقين».

«بل أريد منك ان تطيعي التعليمات».

بكل تأكيد لم يكن البارون معتاداً ان يتلقى أجوبة من هذا النوع من مساعديه.

«لم تصدر تعليماتي بخصوص الحيوانات لتبقى مجرد حبر على ورق، بل لتطبق بحذافيرها. وعلاوة على ذلك يجب ان لا يكون موقفك من الوظيفة اللامبالاة بل عليك ان تعيريها مزيداً من الاهتمام».

رأت فكتوريا وجه صوفي الصغير المعتد بنفسه وأرادت ان تصرخ لكنها بدلاً من ذلك تمالكت أعصابها وقالت بنبرات تشوبها السخرية:

«ماذا تقصد بكلامك؟».

«بعد محادثتنا في هذا الصباح توقعت ان تبتدئي باعطاء دروسك لصوفي وبدلاً من ذلك اختفيت مدة تزيد عن ساعة مع حيوان مزاجه الخاص غير موثوق به».

حدقت به فكتوريا بسخط لفترة طويلة ثم انصرفت. قال لها البارون بنبرات جافة:

«الى أين تذهبين؟».

خطت فكتوريا الى الوراء وقالت بحذر:

«كنت ذاهبة الى غرفتي لأحزم امتعتي».

مشى البارون بخطى واسعة أمامها وعلائم الغضب بادية على وجهه ثم صاح بنبرة حادة:

«ما هذه الحماقة؟ لا يجوز يا آنسة ان تتصرفي باهتياج لمجرد حديث معك».

حملقت فكتوريا به غاضبة وهتفت قائلة:

«اتسمّي هذا حديثاً امام فتاة صغيرة في التاسعة من عمرها...».

أجاب البارون بنبرة فاترة:

«انه عبارة عن نصح وتحذير. من غير ريب لي الحق بصفتي رب عملك ان أسأل عن تحركاتك خلال الساعات التي أتوقع ان تقومي فيها بمهمتك».

داست بقوة على رجليها وأزالت آثار الثلج المتبقية على حذائها العالي الساق ثم رفعت بصرها اليه بكره وقالت:

«حسناً جداً. ربما كنت ذات حساسية شديدة في هذا الصباح».

تطلعت نحو صوفي فتشجعت عندما رأت ان صوفي بدأت تبدو مرتبكة.

فسأل بعبارة مركزة:

«ما الذي جعلك شديدة الحساسية يا آنسة؟».

ثم القى نظرة عجلى نحو صوفي قائلا:

«هل لابنتي صوفي علاقة بهذا الأمر؟».

اصبح أكثر قدرة على الفهم عندما بدت صوفي انها هي المقصودة بالحديث، ولم يعد ضروريا ان تبرر فكتوريا موقفها وان تسرد الحكاية وتهدم احترام ذاتها وتنشىء عداوة مع صوفي في المستقبل. فرحت بانفتاح باب مدخل الممر في تلك اللحظة حيث دخلت ماريا حاملة صينية عليها جرّة من الحليب الساخن وأخرى من القهوة وثلاثة كؤوس كبيرة ووضعت الصينية على المنضدة الطويلة المصقولة. ترك البارون فكتوريا وأقبل على ماريا والابتسامة ترتسم على شفتيه وأومأ برأسه محيياً بلطف:

«شكراً ماريا هذا ما يرحب به الجميع».

احمرّ وجه ماريا خجلا وتطلعت الى فكتوريا وقالت بشيء من الارتياح:

«وهكذا رجعت يا آنسة. كان غوستاف على وشك الذهاب للبحث عنك».

«عني ولماذا؟ لم اكن ضائعة؟».

اذن البارون لماريا بالانصراف بهزّ رأسه وبعد ان تركتهم المرأة المسنّة قال:

«الطقس رديء في هذه الجبال. ان عاصفة ثلجية مفاجئة يمكن ان تفسد تقدم اكثر متسلقي الجبال خبرة فيهوون ويغطون بالركام».

«لم اكن أتسلق الجبال. كنت امشي خارج اسوار القصر. هذا كل ما في الأمر».

«مع فريتز. حيوان لا تعرفين عنه شيئاً. . . اشاع الرعب في اوصالك الليلة الماضية».

شعرت فكتوريا الآن بأنها اصبحت متمردة فقالت وقد نفد صبرها:

«ماذا تريد يا سيدي البارون ان أقول؟ انا آسفة لأنني سببت لكم بعض القلق ولكن بالتأكيد لم اقصد ذلك. عندي الادراك الكافي بعدم محاولة السير بعيداً عن القصر بدون حرس للحماية».

«يسرني ذلك».

تطلع البارون الى ابنته وقال لها:

«ستبدأين دروسك بعد الظهيرة يا زهرتي الصغيرة».

مشت صوفي خلسة من المكان الذي كان جاثمة فوقه ودنت منه تعانقه وقالت وهي منكسة رأسها بهون:

«أشعر انني على غير ما يرام صحياً».

«أتشعرين بأنك لست على ما يرام؟».

ثم كرر كلامه بالانكليزية لتفهمه فكتوريا:

«كنت قبل الآن في أتم الصحة».

«انه وجع رأس. ألا نترك الدرس الى الغد باعتبار ان الآنسة لم تبدأ به في هذا الصباح».

القى البارون ببصره الى رأس صوفي اللطيف ثم تطلع الى فكتوريا التي لم تكن تستطيع ان تخفي تماماً نفاد صبرها وقال البارون بحزم:

«ستترك المباشرة بالدروس الى الغد وبعد الظهيرة تستطيع الآنسة مونرو البدء في تفريغ محتويات صندوق ثيابها الموجود حاليا في الخزانة ذات الرفوف وسأنقله انا وغوستاف الى غرفتك بعد الغداء يا آنسة».

نسيت فكتوريا نفاد صبرها بسرورها الشديد عند علمها بأن صندوق ثيابها وصل بالفعل. وكان بودها ان تسأل البارون عنه في الليلة الماضية بعد العشاء ولكن عدم ظهوره حال دون قيامها بذلك. وفي هذا الصباح نسيت كل شيء حول الموضوع. وهتفت بابتهاج:

«كنت على وشك ان أسأل عنه. اكثر ثيابي فيه».

ألقى عليها البارون نظرة عجلى ملتوية:

واذا كان الصندوق محملاً بثيابك يا آنسة فقد لا تكفي التسهيلات الموجودة في غرفتك لاستيعابها».

«الصندوق يحوي اكثر ثيابي ولم أقل انه مملوء بها. توقعت ان الليالي هنا قد تكون مملة بدون قراءة بعض الكتب او خياطة بعض الأشياء».

صرخ البارون متعجباً:

«هل تخيطين يا آنسة؟».

ظن انه يهزأ بها وبدون ان تجيب مشت بسرعة نحو الباب وأدارت المقبض واذا به يقول:

«قهوتك يا آنسة».

رجعت منزعجة وقبلت فنجان القهوة. تلى ذلك سكون مطبق لبعض اللحظات استأذنت بعدها فكتوريا بالانصراف واجتازت الرواق وارتقت درجات السلم المؤدي الى غرفتها.

كيف يمكن كسب ثقة البارون، هذه هي النقطة الأساسية في الموضوع. الآن هي ليست اكثر من متطفلة على الأسرة ومتطفلة عابرة، ولهذا يجب ان تقنع بأنها جديرة بالقيام بالمهمة الموكولة اليها.

تناولت طعام الغداء مع ماريا وغوستاف وقد كان البارون وابنته غائبين ايضا. عندما اشارت فيكتوريا الى هذا الأمر لدى ماريا تبين لها بأن صوفي ووالدها يتناولان وجبة طعامهما في المكتب الذي شاهدته في ساعة مبكرة من هذا اليوم.

قالت ماريا وهي تقطع اللحم الى شرائح وتضعها في صحونهم:

«السيد البارون يتناول طعام الغداء في مكتبه وأحياناً يسمح للبنت بأن تنضم اليه».

قالت فكتوريا:

«نعم فهمت».

قطبت وجهها اشمئزازاً وبدأت تلتهم الحساء الشهي الذي قدمته لها ماريا. وكانت تشعر بالمرارة لأن البارون بين لها ان بامكانها تناول طعامها في صينية تقدم لها في غرفتها. كانت تعتقد ان الجميع يأكلون في المطبخ واذا بها تكتشف حقيقة الواقع المزعج بانزال منزلتها الى منزلة ماريا وغوستاف بينما

وضع البارون وابنته يختلف تماماً عنها. غمغمت انفها مستسلمة. ماذا يضيرها ان تأكل في اي مكان؟ فالمطبخ لا يقل شأناً عن اي مكان آخر من هذه البناية الضخمة المظلمة وعلى الأقل تجد فيه رفقة لها. اصبحت متأكدة بأنها لا تعتبر اكثر من احد اجزاء البيت.

وبعد ظهيرة ذلك اليوم جلب غوستاف وربّ عمله صندوق ثيابها الى غرفة نومها وبعد ان ذهبا فتحته باهتمام شديد.

في أسفل صندوق الثياب وجدت جهازاً مزوداً براديو ترانزستور يعمل على البطاريات ومسجلة نسيت بأنها وضعتها في صندوق الثياب وهكذا تستطيع ان تستمتع عندما تشاء ببعض القطع الموسيقية. وبعد ان اخرجته ضغطت على الأزرار فاذا بلحن موسيقي حالم شعري الطابع يدوي في الأرجاء. ابتسمت لنفسها وأكملت افراغ حقيبتها فوضعت صورة خالتها لوري التي جلبتها معها على المنضدة.

وبعد ان أتمت عملها أقفلت الصندوق ودفعته بجهد نحو زاوية الغرفة تحت النافذة. انه بمثابة مقعد اضافي، أمام النافذة كانت بحاجة اليه وكان من الضخامة بحيث يمكن الاختباء وراءه. التقطت احدى الروايات الطويلة وجلست قرب المدفأة. كانت جلسة مريحة جداً للقراءة وبعد فترة سببت لها الحرارة النعاس فوضعت كتابها ونامت.

لا بد انها استغرقت في النوم اذ انها أجفلت في يقظتها عندما سمعت شخصاً يقرع باب غرفتها التي يكتنفها الظلام. كان القارع غوستاف وجاء يتفقد نيران المدفأة واخبارها عن موعد العشاء.

بعد ان أتمت تناول طعام العشاء كانت مترددة في الرجوع فوراً الى غرفتها فاستأذنت من غوستاف وماريا. مشت ابتغاء للنزهة عبر الممر الذي يقود الى الرواق الكبير.

كانت فكتوريا تتفحص عمداً احد السيوف المصنوعة من الصلب عندما تناهى الى سمعها صوت سيارة تسير في فناء القصر. اعتقدت انه البارون وقد عاد من جولة.

«هورست أين أنت؟».

تأكدت انه لم يكن البارون. كان الشاب الذي دخل داكن الشعر ولا يبدو عليه انه اكبر سناً من فكتوريا نفسها. تبدلت سيماؤه عندما رآها

وارتسمت ابتسامة اعتذار على قسمات وجهه الجذابة. تمتم ببضع كلمات وانحنى انحناءة خفيفة وقال:

«عفواً يا آنسة هل يمكنني رؤية البارون؟».

«آسفة أنا لا أفهمك يا سيدي، لا أتكلم الالمانية».

«ألست المربية الانكليزية؟».

«هذا صحيح. أنا فكتوريا مونرو وانت؟».

رفع الشاب قفازيه السميكين المعدين لقيادة السيارة وتقدم نحوها قائلا:

«أنا كونراد زيرمن يا آنسة، انني سعيد بالتعرف عليك. انني طبيب القرية. أنا والبارون صديقان نلعب الشطرنج سوية».

تأكدت فكتوريا عند رؤيته من خلال النور انه أكبر سناً مما تخيلته في بادىء الأمر انه ناهز الثلاثين من عمره كان نحيل البنية معتدل الطول لذلك فقد كان يبدو أصغر سناً.

«كيف حالك؟».

سحبت فكتوريا يدها منه بقوة بينما كان ينظر اليها باهتمام.

«هل تقيم في ريشستين يا سيد زيرمن؟».

«نعم أقيم فيها ولي دار في ضاحية القرية اتخذ منها ايضا حجرة للعمليات الجراحية. يرغب جميع الناس العيش في أضواء سالزبورغ وفيينا الساطعة اما أنا فأحب العيش هنا».

«أعتقد انك مشغول جداً في هذا المكان البعيد».

وافق الطبيب على كلامها وراح يصف الصعوبات التي يلاقيها في ممارسة مهنته اذ ان بعضاً من مرضاه يعيشون في مناطق لا يمكن عملياً الوصول اليها عندما تكون الممرات مكسوة بالثلوج. قال وهو يفك أزرار معطفه.

«طبعاً انزلق على الثلج. انه ليس بالعمل الشاق واستمتع بالتمرين».

ثم رفع معطفه ووضعه على احد الكراسي قرب المدفأة.

لم يتحرك عند دخوله اي من الكلبين. أجال نظره متأملا في فكتوريا وقال لها:

«ما رأيك في ريشستين يا آنسة؟ هل تظنين ان وضعك سيكون في العزلة كاللتين سبقتاك؟».

هزت فكتوريا كتفيها بلا مبالاة وترددت في الجواب ثم قالت:

«اوافق على انه منعزل. لكنني أتصور ان بامكان المرء معالجته بايجاد وسائل للتسلية».

«هذا صحيح هل تمارسين التزلج يا آنسة؟».

ابتسمت فكتوريا وقالت بنبرة يساورها الشك:

«حسنا لنقل انني اعرف كيف اتزلج. قضيت مرة عطلة في سانت موريتز ولكنني خائفة لأنني لست خبيرة بالتزلج».

«طبعا علينا القيام ببعض الترتيبات لمعالجة هذه الحالة يا آنسة. بالنسبة الى الجبال هي كل شيء والتزلج طيران فوق سطح جليد».

قدرت فكتوريا حماسته الواضحة وكانت على وشك ان تشرح له بأنها لم تأت الى ريشستين للمتعة، لكن ماريا دخلت الردهة وهي تمسح يديها بمئزرها. حيت الطبيب الشاب بلغتها ورغم معرفة فكتوريا البسيطة بالالمانية فهمت من حديثها انها تسأله عن صحته وصحة والديه.

فجأة تذكرت الدكتور كونراد زيرمن. طبعاً هو الشخص المثالي الممكن التحدث اليه. صديق للأسرة يعيش في ريشستين من المفروض انه يعرف البارونة وارتباطاته كانت غير عاطفية. وربما كان عليها ان تغتنم فرصة الحاحه لها باعطائها بعض دروس في التزلج لتعرف منه هذه التفاصيل. على انها عندما ستعرفه بصورة افضل يمكن ان يكون لها صديقاً حمياً. .

٤- خصلة الشعر العاصية

في الصباح نهضت فكتوريا باكراً على اشد ما تكون حماساً للبدء بعملها. ارتدت ملابس اليوم السابق وكنزة صوفية. وعندما كانت تصفف شعرها خطرت ببالها الملاحظة التي أبداها البارون في اليوم السابق.

حاولت ان تتركه طليقاً ولكن الذوق السليم سيطر عليها ونظرت الى الأمور بتعقّل وتروٍ ورباطة جأش.

ولما كانت غرفة الحمام واقعة في الدور السفلي من المبنى جلبت لها ماريا طاسة وابريق ماء واغتسلت في ذلك اليوم بالماء الشديد البرودة.

ممارسة كهذه في انكلترا قد تروعها ولكنها تقبلها هنا عن طيب خاطر كجزء من نمط حياتهم. قدمت لها ماريا طعام الافطار وعندما اشارت فكتوريا الى زيارة الدكتور كونراد الليلة السابقة أفاضت ماريا بمكنونات صدرها وتحدثت عن شعبيته بين الناس في القرية وكم عانى والداه لادخار المال اللازم لارساله الى كلية الطب ثم قالت بارتياح شديد:

«طبعاً ان السيد البارون ساعده والسيد كونراد لا ينسى ذلك».

«أتعنين ان الدكتور زيمر من عاش كل حياته في ريشستين؟».

«نعم بعد تخرجه طبيباً رجع الى القرية ليحل محل الدكتور كلاين الذي أصبح متقاعداً».

قالت فكتوريا وهي ترتشف قهوتها. يبدو انه شاب وسيم. اومأت ماريا برأسها بالموافقة بقوة وقالت:

«انه موضع فخر والديه».

تيار بارد أنبأ بوصول البارون. وكما في اليوم السابق كان البارون خارج القصر، مبلل الشعر، اوما برأسه محيياً فكتوريا بلطف ثم ألقى جانباً ملابسه الخارجية وراح يدفىء يديه.

«صباح الخير يا آنسة مونرو أرى انك جاهزة للعمل باكراً هذا الصباح».

«نعم يا سيدي البارون».

«أخشى ان لدي بعض الأنباء السيئة لك يا آنسة».

عندما أدارت فكتوريا عينيها المضطربتين نحوه استطرد قائلاً:

«صوفي لا تستطيع متابعة الدروس. كانت بالأمس منحرفة الصحة ولا تزال على حالها ولا أرغب في اجبارها على العمل وهي شاحبة وسقيمة».

ارتاحت فكتوريا لأنه لم يكن في أقوال البارون لها أشياء خطيرة مع انها شعرت بخيبة لنجاح صوفي مرة اخرى بالامتناع عن الدرس. لم تستطع فكتوريا ان تزيل رد الفعل الطبيعي عند سماع هذا الخبر فقالت بنبرات يشوبها التهكم:

«كم هي محظوظة صوفي!».

تفرّس فيها البارون بعينين ضيقتين حتى ان ماريا توقفت عن متابعة عملها وحدقت فيهما وقال لها بنبرة فاترة.

«ماذا تعنين بالضبط بهذه الملاحظة يا آنسة؟».

ألقت عليه فكتوريا نظرة تتسم بالشجاعة وكان الغضب الذي انتابها يزيد ما وطّدت العزم عليه، لكنها اجابت بنعومة.

«فكرت انه كان واضحاً يا سيدي البارون بأن صوفي نجحت مرة أخرى في التملّص من دروسها!».

«ماذا تعنين مرة أخرى؟».

توردت وجنتا فكتوريا احمراراً. لم تكن تقصد اثارته بقولها هذا. لكن البارون بدا الآن مغتاظاً. أحنت رأسها ورشفت قهوتها محاولة بيأس ايجاد سبب لتراجع عن أقوالها.

«حسناً يا آنسة انني بانتظار جوابك».

«طبعاً كنت أقصد يوم امس بعد الظهر».

«تعنين عندما كانت تشكو من وجع الرأس».

«أعتقد ذلك».

وضع البارون ابريق قهوته على رف المستوقد بقوة فأحدث ارتطامه صوتاً مكتوماً.

«ربما كنت تلمحين بأنها لم تكن مريضة؟».

لم تعد فكتوريا تتحمل أكثر من ذلك. رفعت بصرها اليه بتحدٍّ وقالت:

فتوجهت فيه ماريا وفتحه وصاح بحدة:
«ماريا!».

دلكت فكتوريا راحتي يديها بمرفقيها. اما وقد تم كل شيء، فلا يزال امامها يوم طويل وبدافع قوي رنت ببصرها الى البارون وقالت:

«طالما ان صوفي منحرفة الصحة قل لي هل هناك عمل يتعلق بالقصر استطيع القيام به. اعني بذلك تنظيف الطرق او ربما عندك بعض الاعمال الكتابية التي يمكنني مساعدتك فيها؟».

تجهّم وجه البارون عندما دخلت ماريا الى الغرفة فأسرعت للقيام بأعمالها ملقية نظرة عجل فضولية. ابتسمت فكتوريا لها ولكن ماريا بدت مذهولة تماماً. كانت تتوقع ان ترى المربية الجديدة مجهشة بالبكاء.

قال البارون اخيراً:

«على الرغم من انني أقدر عرضك حق قدره لا أسمح حتى لماريا بتنظيف الطرق. انا وغوستاف قادران تماماً على القيام بهذه الأعباء. لكنني أخذت علماً بمهارتك المكتسبة فيما اذا احتجت لأية مساعدة».

أطلقت فكتوريا تنهيدة خفيفة وقالت:

«طبعاً هناك شيء استطيع عمله».

تأملها البارون بدقة ثم ابتسم مبدلاً ملامح وجهه تماماً. دهشت فكتوريا كثيراً لهذا التبدّل المفاجىء.

«سأذهب بسيارتي الى ريشستين هذا الصباح يا آنسة. هل ترغبين بالمجيء معي؟ انها قرية صغيرة كما تعلمين ولكن فيها بعض المتاجر ويمكن ان تتمتعي بقيادة السيارة».

توسعت عينا فكتوريا عند سماع هذا الكلام ووافقت عليه بقولها:

«أرغب كثيراً بالمجيء».

أما ماريا فتوقفت برهة عما كانت تعمله وراحت تحدّق في ما كان حولها ثم صارت تتمتم لنفسها واستمرت في عملها. فكتوريا غمرها السرور لأن مجابهتها للبارون انتهت حبياً.

اقترح البارون فجأة ما يلي:

«هل ترغبين بجولة في صوفي قبل ان ترحل، انها حزينة في هذه الفترة؟».

ترددت فكتوريا ثم وافقت باهتمام قائلة:

«نعم اذا كنت تعتقد انها فكرة جيدة».

خفض رأسه قليلاً وبعد ان أعطى ماريا تعليمات بأن تمر على غوستاف وتطلب منه تنفيذها مشى الى باب الممر مشيراً بأن فكتوريا سترافقه.

ولما سارا في الردهة قال:

«لم تظهري كثيراً من الفضول حول القصر يا آنسة أو ان الأبنية القديمة تبهرك ما عدا التعجب السطحي لجمالها الخارجي؟».

رفعت فكتوريا بصرها اليه بسخط وقالت بحزم:

«كنت أشعر ان معظم أجزاء القصر غير مستعملة. بالأمس لاحظت عند سيري ان قسماً منه كان يبدو مقفراً تماماً».

«نعم هذا صحيح اذا استثنينا جناح المطبخ الذي يؤمن مأوى مناسباً لماريا وغوستاف والبرج حيث رتبنا هذه الردهة».

ثم فتح الباب الضخم في ذلك الجناح وهو يتكلم:

«وغرف صوفي وجناحي وراءها فلا تستعمل الا القليل من الغرف الأخرى. وهذا مؤسف طالما انها غير مستعملة فهي طبعاً لا تدفأ وانا خائف ان تأخذ الطبيعة منها جزيتها».

«هل استعمل القصر بكامله؟».

«لم يستعمل بكامله، لكن عندما احتلت الجيوش الالمانية النمسا استولت عليه هذه الجيوش وبالتالي فان معظم غرفه أشغلت، وبما انه مجرد مقر لبارونات فون ريشستين فلا ينتفعون به بغير سكناه».

أطلق تنهيدة خفيفة وهو يفتح الباب المؤدي الى الجناح الثاني.

«لا قدرة لأكثرنا على تحمّل نفقات صيانة هذا البناء الضخم. أعرف تمام المعرفة ان بيع القصر الى نقابة مهنية او ربما تحويله الى فندق للسياحة سيكون عملاً تجارياً رابحاً».

ثم هز كتفيه استهجاناً وقال:

«انني بطبيعتي لست رجلاً اجتماعياً. مشهد تعبئة المبنى بثرثرة من يقضون العطلة من المرتدين ملابس ما بعد التزلج المبهرجة تملأني اشمئزازاً. لذلك نعيش عيشة بسيطة غير مزودين بالتجهيزات العصرية».

كانت فكتوريا مرهفة السمع اليه. وكان ينظر اليها نظرة تشوبها بعض السخرية وسألها وهو يسير عبر الردهة الطويلة الى مكتبه ومنه الى غرفة

صوفي وفكتوريا تسير وراءه.

«هل تعتبرين ذلك حماقة؟».

«بالعكس لا يمكن لأي انسان ان يجد أشياء كهذه اكثر اهمية من المال، انها أثر رائع».

«ألنت واثقة من انك لا تهزأين بي؟ حتماً المال هو أساس هذا العصر».

ارتسمت ابتسامة على شفتي فكتوريا وقالت:

«اعتقد ذلك على الرغم من ان معظم الناس يجدون انه لكي يعيش الانسان على ما يرام يجب ان يحظى بالأمان وهذا لا يتوفر تحت وطأة الضغط والتوترات العصبية الا بالمال الذي يؤمن الاستقرار».

«نعم ربما كان ذلك. القصر هو منزلي واني مستعد لعمل اي شيء لابقائه على حاله».

وبينما كانت فكتوريا تقبل هذه الملاحظة كان البارون قد توقف عند احد الأبواب وفتحه وسمح لفكتوريا ان تتقدمه الى غرفة صوفي.

كانت شقة جذابة للسكن، جدرانها مغطاة بصورة بديعة بورق ورسوم وتجهيزات كاملة يمكن ان تحتوي اكثر لعبها. اما فراشها فكان ضخماً كفراش فكتوريا وكانت صوفي تبدو ضائعة فيه. والواقع كان يبدو عليها الشحوب وشكت فكتوريا بأن سببه وجود مدفأة ضخمة تشتعل في الغرفة الخالية من الهواء الطلق.

شابت سمة دكناء سحنة صوفي عندما رأت من كان برفقة والدها ولو ان زيارة فكتوريا نصف مقبولة فقد اعتذرت لعدم مجيئها الى هنا من قبل.

تقدم البارون من الفراش وجلس قربها وقال:

«هل تشعرين بتحسن يا حبيبتي؟».

أمسكت صوفي بيديه ونظرت اليه بهيام:

«انني على ما يرام يا أبي».

ثم استطردت قائلة بنعومة:

«انك تعلم كم تكون أوجاع الرأس مؤلمة في بعض الأحيان».

أجال البارون يده الناعمة فوق جبينها وقال:

«اعلم ذلك. ابقي في محلك وسأطلب من ماريا ان تحضر لك شراباً بارداً».

كانت فكتوريا واقفة قرب الباب فشعرت ان هذا اكثر مما ينبغي. على ان والد صوفي استدار وقال:

«انظري. جاءت الآنسة مونرو لتستفسر عن حالتك الصحية. لقد أصيبت بخيبة أمل كبيرة لعدم ابتدائك بتلقي الدروس في هذا اليوم».

ازدرت صوفي هذا الكلام ولكنها لم تتفوه بأي كلمة اما فكتوريا فابتسمت ابتسامة باهتة. كانت تشعر بأن صوفي لا تزال تزدري الاعيبها لذلك من الصعب بيان أية عاطفة لا تشعر بها نحوها وبدلاً من ذلك قالت:

«الغرفة مغلقة جداً هنا يا سيدي البارون ألا تعتقد ان قليلاً من الهواء يفيد صوفي؟».

حرر البارون نفسه من يدي ابنته ومشى في الغرفة.

«نعم ربما أنت على صواب يا آنسة؟ هنا جو حار غير صحي. هل ترغبين يا صوفي بأن نفتح لك احدى النوافذ؟ تستطيع ماريا ان تغلقه عندما تحضر لك شرابك».

قطبت صوفي حاجبيها وقالت:

«ألا تجلس معي يا أبي؟».

أجابها البارون والابتسامة تعلو شفتيه.

«لا يمكننا ان نقضي جميعاً أيامنا في الفراش. هناك أعمال يجب القيام بها».

قال ذلك برشاقة محاولا اشاعة الابتهاج في نفسها.

امتقع وجه صوفي وهتفت:

«وعدتني بأن تأخذني معك عندما ستذهب الى القرية».

«لا تخافي سيتحقق هذا الأمر في المرات المقبلة والآن سنتركك للراحة».

قطبت صوفي شفتيها استياء ولم تجب بشيء. أشار البارون الى فكتوريا ان تسبقه الى الخارج. وما ان أصبح في الرواق حتى هز رأسه بشدة قائلا:

«انها لمحنة كبيرة هذا الصداع الذي ينتاب صوفي من حين لآخر».

اخفت فكتوريا غيظها وسألته قائلة:

«هل فحصها طبيب؟».

«نعم ولكن بدون فائدة».

«ان الأمر غير خطير اذن. ربما كانت بحاجة الى نظارات».
ألقى عليها البارون نظرة عجلى تتسم بالهزل وقال بجفاء:
«هذا الاقتراح غير ملائم لابنتي يا آنسة».
عندما قادت السيارة نحو القصر في المساء منذ يومين كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله فلم تستطع رؤية ما حولها. كانت المنطقة عبارة عن سلسلة من الوديان بعضها اعلى من البعض الآخر مع ممرات ضيقة فيما بينها. أشارت مرة فكتوريا الى برج مبني من الحجر ظاهر فوق الأشجار. فسرد لها البارون قصة ذلك البرج وهو انه كان ديراً ولكن لم تكن فيه غير منازل قليلة. لفتت انتباهها مداخن السطوح والدخان المتصاعد فقطبت وجهها وقالت:

«هل هناك مزارع كثيرة في هذه الأرجاء؟».
أدار البارون سيارة الستايشن حول منعطف حاد قبل ان يجيب:
«هناك مزارع كثيرة ولكن بسبب وضع الأرض لا يمكن رؤيتها جميعها من الطريق. في أشهر الصيف تجدين نشاطاً اكبر بكثير. الآن الحيوانات قابعة في زرائبها والتربة مدفونة تحت طبقة كثيفة من الثلوج».
ألقت فكتوريا نظرة عجلى من فوق كتفه وقال:
«هذه المزارع لمن تكون؟ طبعاً انهم مستأجرو أراضيك».
«المستأجرون عندي كما تسميهم احرار بالتصرف في الأرض. اني أكره بيع الأراضي. لقد بيع كثير منها حتى الآن. كانت ممتلكات بارونات فون ريشستين تمتد أميالاً عديدة في كل جهة. عبارة عن امبراطورية تحكم بعصا من حديد مضت هذه الأيام الى الأبد. مهما تكن اخطائي وأخطاء أجدادي يا آنسة فلا أعتد بها».

«أي انسان يمكنه ان يحكم بعصا من حديد يا سيدي البارون. الخوف سلاح قوي لكن القوة تكمن في الاحترام والاخلاص والمحبة وليس بالعنف».

تقوست حاجبا البارون وعلق على كلامها بمرارة قائلاً:
«انك فيلسوفة يا آنسة مونرو مما يبعث السرور معرفة كونك لا تعتبرين وضعي دلالة على الضعف».
«بالعكس أشعر ان عندك قناعات قوية بالدور الذي يجب ان تلعبه».

انك ايضا على حق».
خفف البارون سرعة السيارة عندما بدأ بالهبوط في الوادي حيث تنتشر القرية.
«ربما اعتبرت أساليب عملي شاذة. من غير المعتاد ان يحرث مالك الحقل حقله وان يطعم صاحب الحيوانات حيواناته وان يعمل حتى يدب الألم في ظهره. أنا البارون فون ريشستين ومع ذلك أعمل بيدي!».
أطلق البارون تنهيدة خفيفة ثم أردف قائلاً:
«لكنني رجل والحمدلله أتمتع بصحة جيدة واستمتع بأعمالي. لست بطبعي مترفاً ومع ذلك تناهى الى سمعي بأن الاشاعات تتردد عن عزمي بيع القصر والممتلكات وكل شيء».
«لماذا؟».
«بالمال الذي أحصل عليه استطيع شراء مبنى مؤلفاً من عدة وحدات سكنية مؤثثة، والتحق بجميع أولئك البارونات في اوروبا الذين يترددون على عالم الطبقات الاجتماعية الراقية آملين ان يربحوا يوماً ثروة على موائد القمار يمكنهم من استعادة شراء ممتلكاتهم وضمها الى امجادهم السابقة. لا استطيع ان أرى نفسي في هذا الدور. أشفق فقط على حماقتهم. يمكن ان نكون فقراء في ريشستين ولكن على الأقل لسنا مديونين. لماذا يجب عليّ ان ابيع الشيء الذي أحبه اكثر من أي شيء آخر بعد صوفي؟».
ساورت فكتوريا الحيرة ليس فقط مما سمعته بل مما لم تسمعه. لم ينوّه قط في أي وقت من الأوقات بزوجته البارونة وهذا غريب. اين كانت والدة صوفي؟ لماذا لا يذكر اسمها؟ لا يمكن ان تكون قد ماتت والا لكانوا ذكروا موتها. فلماذا هذا السر حولها؟ كان هذا الأمر يزعجها كثيراً.
وبما ان فكتوريا معتادة على الثقة بغرائزها وجدت هذا الأمر مثيراً لفضولها.
في ضواحي القرية كانت كنيسة صغيرة يعلوها برج قوطي ولها واجهة من القرون الوسطى.
تتألف قرية ريشستين من شارع رئيسي تقابله حوانيت كثيرة وبعض البيوت العالية الضيقة ذات الشرفات وأوعية تزرع فيها الرياحين وتوضع على عتبة النافذة. وكان في مركز القرية ساحة قائم في وسطها حجر تذكاري

لقديس غير مشهور هنا كان الناس يتجمعون للتحدث.

وهناك فندق صغير لافتته مهتزة وراء صف الأشجار العارية ومبنى مدرسة ابتدائية مع ملعب ملحق به. أوقف البارون السيارة في الساحة ثم ثبت سترته ورفع ياقته ودلف الى خارجها. ولما شعرت فكتوريا بالهواء البارد يتدفق الى العربة رفعت ياقتها هي ايضا اتقاء للبرد ولحقت به.

نظرت اليه وهو يغلق الباب بحزم وراءها ولم تتمالك من ان تقول بنبرة يكتنفها المرح.

«كان من المفروض ان افتح لك باب السيارة».

«عليّ ان أقوم ببعض الاتصالات ماذا تريدين ان تفعلي؟».

هزت كتفيها بلا مبالاة وألقت نظرة عجلى على ما حولها متيقنة ان مجيئها أثار اهتماماً كبيراً من قبل المارين. كثير منهم كلموا البارون بحرارة ولطف لكنهم كانوا يمعنون النظر بفكتوريا.

بدأ السير عبر الساحة مما اضطرها للسير بجانبه. ألقت فكتوريا نظرة عجلى عليه تلاقت بنظراته المحدقة المرحة. كان سلوكها فظاً وأدركت هذا الأمر لأنها تصرفت كذلك في الليلة الاولى من وصولها الى قرية ريشستين عندما تأخر عن ملاقاتها في القطار.

فوجئت بالبارون يقودها الى الفندق الواقع في الجهة البعيدة من الساحة، وما ان دخلا القاعة حتى انطلق رجل بسرعة واهتياج وتكلم باحترام شديد مع رب عملها. كان رجلا قصيراً واسع الصدر معتداً بشاربيه الكبيرين. ألقى نظرة عجلى على فكتوريا مبدياً اهتماماً أكيداً بها. وقادها البارون الى ذلك المكان وأفهم صاحب المشرب بالالمانية انها مربية صوفي الجديدة.

هز الرجل رأسه بلطف وقال:

«مرحبا بك يا آنسة مونرو انا مشتاقون لرؤيتك في قريتنا».

ابتسمت فكتوريا مرتبكة فقال البارون:

«انه يقول مرحباً بك في قريتنا».

أشار الى مقعد في الزاوية قرب المدفأة.

«اذهبي وتدفئي سأطلب لك شيئاً منعشاً».

رجع اليها بعد بضع دقائق حاملا قدحاً طويلا فيه سائل كهرماني اللون

اخذته والشكوك تخامرها. أشار اليها ان تشرب شرابها وقال:

«هناك لحم وجبن وسجق اذا كنتما جائعين».

أجابت وهي ترفع الكأس الى شفتيها:

«انني لست جائعة».

كان انطباعها الأول ان هذا الشراب حلو المذاق. قال لها البارون وهو يراقب اختبارها لهذا الشراب.

«انه مفيد صحياً تماماً يا آنسة».

شعرت فكتوريا بعد ان احتست الجرعة الاولى بانه حاد وأول تأثير له كان تدفئة معدتها فوراً. وعندما أخذت جرعة أخرى شعرت بالحرارة تمتد من ذراعها الى رؤوس أصابعها وتنتشر في جميع اجزاء جسمها.

ارتاح البارون لأنها لم تطلب مزيداً من هذا الشراب القوي وجلس بقربها ينظر اليها باهتمام ثم قال:

«هل غفرت لي ذنبي؟».

شاب الاحمرار وجه فكتوريا وقالت:

«طبعاً يا سيدي البارون. وعلى كل فانا لست بوضع استطيع فيه ان اعترض على أي شيء تود القيام به. أليس كذلك؟».

هتف البارون بنفاد صبر وبجفاء قائلا:

«هل اعطيتك هذا الانطباع؟».

شاب محيا فكتوريا الخجل:

«لا. طبعاً لا، كنت أرهقك فقط بهجمات متواصلة هذا كل ما في الامر وسوف لا أكررها».

احنى رأسه وتفحص كأسه مستغرقاً في التفكير لحظة ثم رفع كتفيه بإيماءة بليغة قائلا:

«أخشى ان أكون غير معتاد على المناقشات الشفهية المعقدة، ولكن جدياً لا أشعر بأنك تعتبرينني شخصاً مخيفاً».

انهت فكتوريا احتساء شرابها الذي انعش جسمها. وكانت تشعر بالارتياح لاسترخاء عضلاتها.

كانت المدفأة التي تشتعل فيها النيران تشيع الدفء في أرجاء الغرفة وتسبب لها النعاس. والبارون يحدق في لهب النيران مستغرقاً بالتفكير وهي

تساءل عن الأفكار التي تراود مخيلته. كانت ترى انه من الصعب معرفة لماذا لا تلعب زوجته في حياته الا دوراً صغيراً مع انه بالتأكيد رجل شريف قابل للاحاسيس القوية، رجل من السهل ان ينجرف الى حب لا سبيل لمقاومته... وبجهد مفقود العزم عليه وقفت منتصبة بسرعة. رفع بصره اليها مذهولا وقال:

«لا عجلة في الأمر يا آنسة».

كانت عيناه الزرقاوان اللامعتان تراقبانها كما لو كانتا تقيّمانها.

بدأت فكتوريا فجأة ترتجف واخذت قفازيها. ربما لانه كان لا يتورط في اي غزل شفهي خفيف فقد وجدته مقلقاً بصورة خطيرة.

ألقت نظرة عجلى على ساعة يدها وقالت بسرعة:

«هذا وقت تناول الطعام، يجب ان نعود يا سيدي البارون الى ريشتين وأريد ان أرى صرفي بعد الظهيرة».

اطلق البارون تنهيدة خفيفة وهو ينهي احتساء شرابه ونهض، واخذ ينظر اليها وهي تثبت وشاحها على شعر رأسها ثم تمتم قائلا:

«قولي لي يا آنسة هل لون شعرك طبيعي؟».

رأت فكتوريا ان من الصعب ان تحبس أنفاسها فأجابت بعدم ارتياح:

«لماذا؟ نعم طبعاً».

علّق على ذلك بنظرات مبهمة قائلا:

«الشكل البسيط يناسبك ولكنني ارغب برؤيته طليقاً غير مربوط باحكام».

استوعبت فكتوريا هذا الكلام بصعوبة ولكنها حاولت ان تجيب برفق فقالت:

«ان شعري مرسل».

وضع البارون يده على خصلة شعرها الملتفة امام اذنيها وما ان بدأ قلب فكتوريا ينبض بسرعة حتى أنزل يده عنها. اطلقت فكتوريا تنهيدة عميقة وتبعته. كانت طوال طريق العودة الى القصر تساورها الظنون بأنها أثارت استياءه.

تساءلت لماذا أعاد ذكر ما كان اقترحه عليها من جهة طريقة قص شعرها ومهما يكن من أمر كان جافاً لدرجة الفظاظة ولو انها حاولت ابداء ملاحظة

عرضية.

تركته في فناء القصر بعد ان شكرته لأخذها معه في هذه الجولة. اما هو فقد عبّر صراحة عن شكره لكياستها.

انتزعت فكتوريا رزمتها من المقعد الخلفي ومضت مسرعة الى القصر. اختارت المدخل الرئيسي لتتجنب غوستاف وماريا.

طبعاً سمعوا صوت السيارة وعرفوا انها سيارة البارون من صوت السلاسل المتميزة على عجلاتها والتي لا تترك اي مجال للشك فيها. كانت لا ترغب ان تفتح الآن حديثاً معهما حول جولتها مع البارون.

ارتقت بسرعة درجات السلم باتجاه غرفتها واطلقت تنهيدة ارتياح عندما فتحت بابها. على انها سرعان ما فوجئت بمشهد صعقها لقد رأت غرفتها بحالة لا توصف من الفوضى اذ كانت جميع ادراجها مسحوبة ومحتوياتها مفرغة ومبعثرة على الأرض. كانت خزانة ثيابها مفتوحة وعلاقات ثيابها مفرغة وملابسها وأدوات زينتها مبعثرة بغير انتظام في كل اتجاه. كانت الفوضى ممتدة حتى الى فراشها الذي رتبته قبل تناول طعام الافطار، حتى احذيتها تبعثرت في كل مكان. جوارب النايلون شوهت بشدة ولم يبق هنالك جورب غير منسل.

تملّك فكتوريا الحزن لهول ما رأت وراحت تجهش بالبكاء. كانت تعرف تمام المعرفة ان شخصاً واحداً في القصر يمكن ان يرتكب مثل هذا العمل الشائن.

تساءلت فيما اذا كان عليها ان تستكين ام تتوجه فوراً الى البارون وتطلعه على ما فعلته ابنته الغالية.

٥ - من حفر حفرة لأخيه . . .

ألقت بالرزمة على فراشها وفطنت عندئذ الى انها ليست رزمتها على الاطلاق. لقد غلّف رزمتها مساعد صاحب المتجر بعناية ليتسنى له الوقت اللازم ليتفحص فكتوريا بدقة أما هذه الرزمة ولو انها من الوزن ذاته فقد شدّت بطريقة عادية والأشياء ذات الوزن الثقيل التي فيها تسببت عند وضعها على الفراش بإزاحة زاوية منها كشفت عن الكتب الموثقة فيها.

أطلقت تنهيدة خفيفة وسارت نحو فراشها ورفعت الرزمة مرة أخرى. عليها ان تعيدها فوراً الى البارون قبل ان يكتشف بنفسه هذا الخطأ.

كانت يدها تمسك بمقبض الباب عندما سمعت قرعاً على باب غرفتها. رجعت فكتوريا الى الوراء وهي تضغط على حنجرتها. تساءلت ما عسى ان يكون هذا الأمر. صرخت مترددة:

«من الطارق؟».

أجابتها نبرات صوت البارون المميزة:

«ويشستين! أعتقد انك أخذت احدى الرزمات العائدة الي بالخطأ. لدي هنا رزمتك».

لعقت فكتوريا شفتيها الجافتين وأجابت بارتباك:

«هذا صحيح. لكنني أبدّل الآن ثيابي».

وبسرعة فكت سيور حذائها العالي الساق ورمته فوقع على الأرض بوزنه الثقيل محدثاً دوياً.

«هل بامكانك يا سيدي البارون ابقاء الرزمة في الخارج وأجلب لك رزمتك بعد بضع دقائق؟».

أعقب ذلك لحظة صمت ثم قال بصوت جاف:

«كما تشائين يا آنسة».

«شكراً».

ابتعدت فكتوريا عن الباب بارتياح واذا برجلها المكسوة بالنيلون

تصطدم بزاوية حادة من أحد الادراج الذي تركته صوفي على الأرض. أطلقت فكتوريا صيحة ألم عندما رفعت رجلها المصابة فأمسكت بطرف الفراش لتتحاشى السقوط. وما كادت تقف هناك على رجل واحدة كطائر اللقلق حتى دفع الباب وفتح ووقف البارون على العتبة. كانت عيناه تقدحان غضباً لا يمكن تصوره عندما أبصر المشهد. أسبلت فكتوريا عينيها لحظة. وقع الأسوأ ولم تكن مهيأة لأي جدل.

تمتم البارون وعيناه تجولان على الأشياء المبعثرة في كل مكان من ملابس وأدراج وعلاقات وأخيراً صوّب نظره الى وجه فكتوريا المرتبك وقال:

«يا الهي ما هذا؟».

ثم رقت نظراته قليلا وقال:

«هل انت على ما يرام؟ هل أصبت بأذى؟».

هزت فكتوريا رأسها بوهن وقالت:

«كل ما في الأمر ان رجلي ارتطمت بالدرج الملقى على الأرض».

دخل البارون الغرفة وشرع برفع الدرج الذي آذاها ووضعه على الفراش لتحاشي ضرر آخر قبل ان يقترب من فكتوريا. قال لها:

«اسمحي لي بان أرى رجلك».

ودون ان ينتظر موافقتها انحنى وامسك برجلها. كان خبيراً بمثل هذه الأمور. مس البارون رجلها مساً عابراً رقيقاً فاذا بها تحركها وتمشي بسهولة. نهض منتصباً على قدميه وهز رأسه وهو لا يكاد يفهم ما حوله وقال بنبرة جافة:

«هذا ليس بالأمر الخطير يا آنسة انني بطبعي لست رجلا عنيفاً ولكنني أرى من الصعب في هذه اللحظة ان أزيل انفعالي الشديد».

مس شعر رأسه الكثيف مساً رقيقاً واستطرد قائلا:

«قبل ان تحاولي ان تقولي شيئاً آخر أقول لك ان صوفي هي التي فعلت حتماً هذا الأمر. لست أعمى تماماً عن تقاعسها عن أداء واجباتها ولكنها تمادت كثيراً في الوقت الحاضر».

وضعت فكتوريا رجلها على الأرض وشعرت بان الألم كان يتلاشى بسرعة فرفعت كتفيها بوهن وقالت:

«أرجوك تجاهل ما رأيته الآن في الغرفة».

دار البارون حولها وهتف بعنف قائلا:
«هل كنت مزمعة ان تبقيه سراً في نفسك يا آنسة؟».
«هذه مسألة بيني وبين صوفي. طبعاً كان لديها سبب للقيام به وهذا ما أفكر باكتشافه».
اطلق البارون كلمة تجديف غاضبة بلغته الالمانية وهو يرد بحدة:
«سمح لها ان تعمل على هواها اكثر من اللازم. ظننت انها لا تخطىء. يجب تغيير هذا الوضع».
«نعم انني أوافقك على هذا. الا يمكنك انجاز ذلك باللجوء الى دالتك عليها؟».
ساورته الشكوك فيما اذا كانت فكتوريا مخلصة في أقوالها:
«اتحاولين الدفاع عنها يا آنسة؟».
«أعتقد انني أدافع عنها. لا أزعم انني أعرف كل شيء عن البنات اللواتي في عمرها ولكن الأولاد الحقودين فطرياً هم قلة. انني متيقنة انها تامل بان تضطرني للرحيل بما تسببه لي من الانزعاجات التي لا قبل لي بتحملها ولكن هنالك الكثير من ذلك».
«وهل ستضطرك الى الرحيل يا آنسة كما اضطرت المربيتين الأخريين؟».
ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه فكتوريا فقالت:
«أشكُ في ذلك. لست عصبية المزاج فطرياً وأكره التفكير بأنني أجبرت على ترك عملي لأنني لا استطيع ان أعامل بطريقة خاصة فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها العشر سنوات. وفضلا عن ان تنشئتي كانت كذلك وكان من الممكن أنا ايضا ان أصبح أنانية وحقودة لولا وجود من يرد عني وكذلك الحال بالنسبة الى صوفي التي لم تصادف حتى الآن على ما أعتقد شخصاً يقابل الأذى بمثله».
«ماذا تعنين بذلك يا آنسة؟».
«ابنتك مشمولة تماماً بمحبتك وبرعايتك لها. انك بالنسبة اليها كل شيء في عالمها الصغير وبينما تستطيع ان تسلك سلوكاً وقحاً بالنسبة الي او لأي شخص آخر يحاول ان يفرض عليها بعض القيود فهي لا يمكن ان تفعل شيئاً يهدم ثقتك بها».

مد البارون يده مشيراً الى الأشياء المبعثرة في الغرفة وقال بنفاد صبر:
«وهذه؟».
«كما قلت سابقاً كان من المفروض ان لا تعرف شيئاً عنها».
«كان بامكانك ان تأتي الي وتخبريني عنها».
«لكنها عرفت بأنني لا أريد ذلك».
«كيف؟».
«من الصعب الشرح دون اقحام عدد كبير من التفسيرات لنقل انه بعد رحيل مربيتين تصورت انها اصبحت منيعة وأبعد من ان يكتشف أمرها».
فكّرت ملياً ثم استطردت قائلة:
«لا يمكن ان يكون هنالك شخص يفكر في المحافظة على أسباب معيشته يرغب في المجيء اليك ليسرد عليك قصصاً حول ابنتك لأنك ستحميها بشدة وعلاوة على ذلك يمكنها ان تنفي دائماً كامل القضية».
«كيف يمكنها ان تنفي هذا الأمر؟
ماذا تقترحين يا آنسة؟ نسيت كل شيء حول هذا الأمر. هل أكبح ميلي لمعاقبة ابنتي بالطريقة التي أرغبها؟».
«نعم هذا بالضبط ما كنت أريد ان تفعله».
«أنت امرأة شجاعة يا آنسة مونرو، وليس عندك اي فكرة عما يمكن ان تحاول صوفي القيام به في المرة المقبلة».
«اذا كنت تمنحني حرية التصرف مع ابنتك يا سيدي البارون لا أعتقد ان صوفي ستكون متحمسة لمقاومتي».
«هل تعنين معاقبتها بنفسك؟».
«نعم، ولكن ليس بالطريقة التي تفكر بها. اعدك بأن لا يلحق صوفي اي أذى على يدي».
«انني أعدل رأيي عنك يا آنسة. ان كلمة شجاعة خطأ وأبدلها بذكية».
«كلا لست ذكية يا سيدي البارون فقط منطقية».
هز البارون كتفيه العريضتين والقى نظرة عجلى على ما حوله:
«وهذه الفوضى في الغرفة؟ تعالي! سأساعدك. هل ترغبين بأن اطلب من ماريا مساعدتك على ذلك؟».
«استطيع تدبّر الأمر. ارجوك الا تكشف عن اي شيء مما حدث لأي

شخص كان».

«سيعمل حسب رغبتك طبعاً. صداع صوفي هذا الصباح كان مصطنعاً كما شككت».

«ألم أقل؟».

«آه يا آنسة اعرف بانك متحفظة جداً. وعلى الرغم من ذلك انا لست تماماً بدون حساسية وضحك كان واضحاً بالنسبة الي».

«أنا آسفة».

«لا تأسفي على شيء. من الأمور الحسنة ان يفهم واحدنا الآخر».

شقت نظراته طريقها الى عينيها لفترة قصيرة ثم فجأة رفعها عنها وقال:

«يجب ان اذهب. لقد شاهدتني ماريا صاعداً الى هنا. ستخامرها الشكوك حول علاقتنا».

ازداد احمرار وجه فكتوريا عمقاً وعيناها اللتان كانتا تسددان سهماً الى عينيه مالتا عنه وراحتا تفتشان عن شيء بعيد عن وجه البارون.

«يا آنسة».

بدأ البارون عبارته بهذه الكلمة التي قالها بقوة ثم رفع كتفيه بصورة مبهمة واستدار وبدأ يهبط درجات السلم.

وعندما رجعت الى غرفتها كان الظلام قد خيّم على ذلك المكان وتيقنت ان عليها الاسراع بالاغتسال وتبديل ملابسها قبل موعد تناول طعام العشاء. كان عليها ان تصفف شعرها وتصقله. واذا بالباب يدفع وينفتح وتقف صوفي في عتبة الباب محدقة فيها.

كانت جدائلها منفكة جزئياً وخصلة شعرها بارزة بشكل مضحك في كل جهة. كانت ملابسها غير منتظمة بينما قسمات وجهها تتسم باللمعان والاحمرار وتلتوي من شدة الغضب.

«أنت قطة شرسة أنت، حيوان قذر! أنظري الي أنت بغيضة!».

كانت معرفة فكتوريا المحدودة باللغة الالمانية كافية حتى تفهم بان صوفي كانت تتفوه بعبارات وقحة عنها. تمالكت فكتوريا اعصابها واصطنعت رفع حاجبيها. سألتها بهدوء:

«ماذا في الأمر يا صوفي؟ هل هناك شيء على غير ما يرام؟».

عضت صوفي على شفتيها واخذت أنفاساً عميقة مدركة ان فكتوريا غير

مهيأة للاصغاء اليها بلغتها الالمانية. أطبقت قبضتها وقالت مهددة:

«انني اكرهك! أنت كريهة الى أقصى حد. ولهذا فان أبي سيطردك!».

وكان يشوب صوتها نسيج تنهدي مضطرم بالغضب. وضعت فكتوريا فرشاتها على المنضدة وتفحصت وجهها بدقة في المرآة زاعمة انها تتفحص بشرتها ثم قالت لها بدون مبالاة:

«مهما يكن الأمر فانك مضطربة!».

واستدارت والابتسامة ترتسم على وجهها لتواجه الابنة وقالت:

«أنا الوحيدة التي يجب ان أكون مضطربة. أتعرفين ماذا حدث اليوم؟».

رفعت صوفي حاجبيها الداكنين وعندما ظلت صوفي تحدق فيها بملامح يشوبها التمرد استطردت فكتوريا:

«عندما كنت خارج القصر مع والدك دخل شخص هذه الغرفة وقلبها رأساً على عقب. أليس هذا مروعاً؟ أعني من يرغب ان يقوم بمثل هذا العمل؟».

لم تجب صوفي بشيء ولكن أسنانها كانت مطبقة باحكام، ثم أضافت قائلة:

«ولكن كما ترين قمت بتنظيف الغرفة واعادة ترتيبها وازالة الفوضى التي كان منتشرة فيها. هذا العمل تطلب مني فترة طويلة، في الواقع كل فترة بعد الظهر».

شبكت أناملها وسألتها:

«والآن ما هو الأمر الذي يزعجك؟».

ألقت صوفي عليها نظرة شزراء وقالت بعنف:

«سترين ذلك خارج البيت!».

ولم ترد على ما قالته كلمة واحدة بل استدارت واندفعت بعنف خارج الغرفة. أغلقت فكتوريا الباب وراءها ووقفت بضع لحظات تحدق في الفضاء وهي تتأمل ردود فعل صوفي وبلا مبالاة عميقة استأنفت صقل شعرها.

قدمت ماريا وجبة الطعام كالمعتاد ولم يبد من وضعها او وضع غوستاف ما يشير بان صوفي قالت لهما شيئاً عما حدث. وما ان انتهوا من تناول وجبة

الطعام حتى فتح باب الردهة ودخل البارون بنفسه الى المطبخ برفقة ابنته صوفي. كانت عيناه تبحثان عن فكتوريا وعندما التقت بنظراتها المحدقة الثابتة قال:

«هل يمكن ان نتحدث قليلا يا آنسة؟».

أحنت فكتوريا رأسها ودفعت كرسيها الى الوراء ثم نهضت. كانت تبدو أهدأ بكثير مما تشعر به وحتى الآن كانت تخامرها الشكوك في دعم البارون لها. كان يرتدي بنطالاً داكناً وسترة مخملية حمراء وقميصاً داكناً يتناسب مع شعره الفضي اللامع. كان يبدو مختلفاً قليلا. راحت تتساءل اذا كانت متفائلة في تخيلها بأن شخصاً في مركزه يمكن ان يوافق على الاسلوب الذي فكرت بأن على ابنته ان تسير فيه.

كانت صوفي نفسها تبدو جذابة تماماً في ثوبها المخملي ذي اللون الأزرق الغامق والأكمام الطويلة وطوقها المتموج. كانت ضفائرها قد مشطت ووجهها يبدو صافياً ونظيفاً.

سبقتها فكتوريا في الممر ومن هناك الى الردهة. كان الكلبان جاثمين في موقعهما المعتاد وأسرع فريتز يلعق يدها.

راقب البارون هذا العرض من الود بعينين ضيقتين وأوشكت فكتوريا ان تقول له بدقة ما هو سبب معاملة الحيوان لها بهذه الصورة، لكنها طوت يديها وراء ظهرها وانتابها شعور بالخوف وحاولت ان يكون صوتها حازماً وقالت:

«هل هنالك شيء على غير ما يرام يا سيدي البارون؟».

«اشتكت لي صوفي بأن غرفة نومها قد قلبت بتعمد!».

شعرت فكتوريا باحمرار خديها وانتابها الغضب الشديد. هل كان عليه ان يقول هذا الكلام بهذه الطريقة؟ انها محقة بما كان يساورها من المخاوف من جهته. اجابت:

«آه. نعم. يا لها من فتاة تعيسة!».

وقفت صوفي في الوسط تلقي نظرة عجلى على كل من الاثنين باستمتاع، فتبددت السخرية من نفس فكتوريا. ألقى البارون عليها نظرة مبهجة وقال لها:

«هل هذا كل ما تريدين قوله؟».

تسمرت أظافر فكتوريا في راحتي يديها وأجابته بضراوة:

«ماذا تريد مني ان أقول يا سيد البارون؟».

«قالت لي صوفي انك مسؤولة عن ذلك. انها تؤكد بأن لا احد غيرك يميل او تتوفر له الفرصة للقيام بذلك».

نظرت فكتوريا الى صوفي. كانت مستمتعة بصورة أكيدة بهذا التحدي. انتابها شعور بالحقد على البارون لاختياره هذه الطريقة في معالجة هذا الموضوع. لم تكن لديها أية فكرة عن غايته في هذا الشأن، وما أغاظها اقحامه اياها في هذه الفوضى.

«حسناً يا آنسة مونرو. انك متهمة بارتكاب عمل تشويه الضغينة. ما هو دفاعك في هذا الخصوص؟».

أجابت بحدة وهي تضغط على شفتيها:

«أنا لست خائفة».

وثبت صوفي من مكانها يغمرها الفرح وقالت:

«قلت لك يا أبي! قلت لك انها ارتكبت هذا العمل».

اخرج البارون علبة سكائره ووضع سيكاراً بين اسنانه واشعله بتروٍ وبطء. ثم تمتم هذه العبارة وهو يدخن بعمق:

«أتساءل لماذا؟».

عندما كانت صوفي تحدق في فكتوريا بازدراء أدارت رأسها لتحدق بفضول في والدها. نظر البارون الى ابنته بحاجبين مرتفعين قليلا.

شعرت فكتوريا بتبدل الجو المفاجيء. نقلت صوفي تحديقها الى فكتوريا وكان في عينيها تعبير عن حيرتها. شعرت فكتوريا بشيء من الشفقة على غباوة الفتاة الصغيرة. ألقت صوفي نظرة اخرى على والدها. نزع البارون سيكاره من فمه وتفحص توهجه باهتمام وقال:

«يبدو يا صوفي، ان الآنسة مونرو غير نادمة، ان لديها سبباً لسكوتها. هل تعتقدين ان علينا سؤالها عن هذا السبب؟».

هزت صوفي رأسها وتجهم حاجباها وقالت:

«لم أفهم يا أبي!».

«ألا تفهمين؟ اذن هذا بالفعل شيء يدعو للأسف».

«ماذا تعني يا أبي؟ هل علمت بأن الآنسة قلبت غرفتي رأساً على عقب!

ماذا تريد ان أقول أكثر من ذلك؟ انها تكرهني!».

ألقت صوفي نظرة عجلى على فكتوريا يشوبها الحقد.

«انها لا ترغب بتعليمي. انها كالمربيتين الأخريين. انها تريد فقط ايذائي واذلالي».

«يكفي!».

كان صوت البارون كئيباً:

«هل تعتبرينني غبياً يا صوفي؟ ان الآنسة مونرو هنا لتعلمك وتريد ان تعلمك اذا رغبت أو لم ترغبي بذلك، سواء اصطنعت امراضاً او سواء حاولت التهرب من الدروس! وستقدم لي الآنسة مونرو عند الاقتضاء تقريراً عن المحاولات التي قد تقومين بها لايقاع الفوضى في حياتنا».

صاحت صوفي:

«أبي!».

لكنها الزمت على السكوت ببرود تعبيره وأمرها بصرامة قائلاً:

«اذهبي الى غرفتك يا صوفي! رتبي أشياءك ثم انزلي وتأملي بما سمعته تواً».

«انك لا تعني هذا يا أبي!».

«بل اعني ذلك».

رد البارون بسرعة ومشى بخطى واسعة وهو يترنح في الغرفة ثم فتح الباب المطل على الجناح الشرقي وقال مشيراً الى صوفي بأن تتركهما لوحدهما.

«اذهبي حالا يا صوفي».

حاولت صوفي للمرة الأخيرة ان تكسب ثقته فقالت:

«ولكن يا أبي!».

جمّد تعبير البارون الصارم التماسها الرحمة. بدلا من ذلك ركضت بسرعة الى الخارج وكتفاها المنحنيتان يهتزان ووجهها الصغير الهزيل جدير بالشفقة.

عندما أغلق الباب وراءها رجعت فكتوريا يساورها الشعور بالانتقام. فمهما يكن الأمر صوفي لا تزال طفلة. رجع البارون عبر الغرفة الى مكانه قرب المدفأة. ورفع بصره الى فكتوريا بعينين ضيقتين وحدّقها قائلاً:

«حسناً يا آنسة. هذا ما أردته. ألم يكن كذلك؟».

«نعم، لا، أي، لا اعرف».

استدارت فكتوريا لتتحداه ملاحظة بأن عينيه الزرقاوين اللامعتين كانتا قاسيتين ومتهمتين.

«هل كان عليك ان تعمل بمثل هذه الطريقة؟».

أجاب بصوت مرتجف:

«هل هناك طريقة أخرى يا آنسة؟».

ضغطت فكتوريا على شفتيها وأجابت مدافعة عن نفسها:

«جعلتنا نحن الاثنتين نشعر بأننا سجينتان في قفص المحكمة حيث يقف المتهمون. لا أريد من صوفي ان تتصور بأننا شكلنا جبهة ضدها. أريد فقط ان تتيقن انك لن تكون دائماً بجانبها ضدي. اعرف انه من الصعب شرح هذا الأمر ولكنك بالفعل خذلتها».

أجاب البارون مذكرا اياها:

«كما خذلتك يا آنسة».

احنت فكتوريا رأسها وقالت:

«اعتقد انك على صواب. هل راودك الأسف لمناهجي؟».

هز البارون كتفيه العريضتين واستدار ليحدق في النار.

«من أكون أنا حتى آسف لمناهجك يا آنسة؟ لقد اثبتت مناهجك نجاحاً هاماً».

«ولكن صوفي خاضعة لك بصورة كاملة».

«أعرف ذلك. اني ملم بمسؤولياتي».

«لم أقل انك لست كذلك».

«سامحيني يا آنسة اني مرهق ورفقتي غير مستساغة».

اصطنعت فكتوريا ابتسامة خفيفة وراحت تمشي عبر الغرفة الى الباب. طبعاً هو يرغب في البقاء وحده.

ان وجودها معه هو ازعاج غير ضروري. ولم تكد تمسك بمقبض الباب حتى بادرها قائلا:

«كانت هذه الأيام الأولى عاصفة لك يا آنسة اني على ثقة بأن عزيمتك لن تثبط».

استدارت فكتوريا لمواجهته وقالت وهي تهز رأسها:
«صوفي تبدي تحدياً. ربما لانها ادركت باكرا بأني لست عدوتها».
كان يبدو جذاباً جداً وهو يقف بقرب المدفأة وتساءلت فيما اذا كان لا يعي شخصيته المغلقة كما يبدو. لا ريب انه يرغب احياناً برفقة امرأة، اية امرأة. توهّج خدّاها ولستر ارتباكها اسرعت بفتح حديث يفتقر الى التركيز:
«انا متأكدة بأن صوفي لم تكن دائماً هكذا . . . ربما كان غياب امها».
وتوقفت فجأة وهي تضغط براحتيها على خديها المتوهجين.
تصلبت ملامح البارون وقال:
«لا أعتقد بأن لقضاياي الشخصية أهمية عندك يا آنسة، انني اقدّر ما تحاولين القيام به لصوفي ولكن هنالك أشياء غير داخلة في وظيفتك هنا».
حاولت فكتوريا ان تجد مخرجاً في وضع يدها على مقبض الباب. قالت بعدم ارتياح:
«طبعاً. انا آسفة يا سيدي البارون».
ألقى بعقب سيكاره في النار وقال:
«عليك ان تطلعيني على جميع المشاكل التي قد تحدث هل هذا مفهوم يا آنسة؟».
«حسناً جداً يا سيدي البارون».
ثم ترددت وقالت:
«هل تأذن لي بالانصراف؟».
ألقى عليها نظرة متلألئة بعينين قلقتين ومقلقتين ثم أجاب بنفاد صبر:
«طبعاً».
مشت نحو الباب وفتحته بارتياح.

٦- اتجاهات خفية

في صباح اليوم التالي توجهت فكتوريا الى مكتب البارون حيث ستقوم باعطاء الدروس. لم تظهر صوفي بعد. تساءلت فكتوريا اذا كان اليوم ايضا غير مثمر. كانت تخشى ان تقترب من رب عملها وهي تجر أذيال الخيبة.
وكم كانت دهشتها عظيمة عندما وجدت صوفي جالسة بتراخ وكسل قرب منضدة القراءة والكتابة في مكتب والدها تنقر بأصابعها بعض الأوراق المنتثرة. رفعت بصرها الى فكتوريا عند دخولها الغرفة ودلّ وميض باهت في عينيها على انها شعرت بقدوم مربيتها. أغلقت فكتوريا الباب غير هيابة وقالت بجفاء:
«صباح الخير يا صوفي. هل أنت مستعدة للبدء بالدروس؟».
انسلت صوفي خلسة من الكرسي ووقفت قربه وقالت بصوت خفيض متوتر:
«سيكون والدي خارج القصر اليوم بكامله. طلب مني ان أقول لك ان باستطاعتنا العمل طوال اليوم اذا رغبت في ذلك».
«فهمت لكن هذا ليس في الواقع جواباً على سؤالي. سألتك اذا كنت مستعدة للبدء بالدروس؟».
«اعرف كل ما أنا بحاجة لمعرفته. استطيع ان أقرأ واكتب في اللغتين الانكليزية والالمانية. ما هو الشيء المتبقي عليّ تعلمه؟».
جمعت فكتوريا الأوراق المتناثرة على منضدة البارون ووضعتها في أحد الأدراج. عندما أصبحت المنضدة نظيفة بدأت باخراج الكتب المدرسية والمواد المعدة للكتابة من درج آخر. سألتها بهدوء:
«وماذا تقولين عن الرياضيات والتاريخ والجغرافيا وعلم الأحياء. هل أنت خبيرة في هذه الأمور ايضا؟».
هزت صوفي كتفيها بلا مبالاة:
«ماذا تنفعني هذه العلوم؟ اننا نعيش هنا في ريشستين. لا افكر مطلقاً

بالرحيل عنها. لا يهمني التاريخ والجغرافيا واستطيع حل مسألة حسابية. اسألي ابي عن ذلك».

أطلقت فكتوريا تنهيدة ونهضت تنظر الى الفتاة الصغيرة بعينين فضوليتين. قالت بحذر:

«تعالي يا صوفي لنوضح الأمور. لسبب ما لا أظنك تريدينني هنا بسبب الدروس. لا أعتقد ان فتاة ذكية مثلك يمكن ان تنكر أية فائدة في التعليم. الا تحبين القراءة؟ عندك عشرات الكتب في غرفتك».

«لقد ألقيت بجميع هذه الكتب على الأرض يوم امس».

هزت فكتوريا كتفيها بلا مبالاة وقالت:

«هذا صحيح! ولكن ليس قبل ان تفعلي الشيء ذاته بي في غرفتي».

«هذا مختلف! الكبار لا يقومون بأعمال كهذه».

«ولماذا لا يقومون بها؟».

رفعت صوفي كتفيها بسرعة وتركتهما يهبطان وقالت:

«انها أعمال سخيفة».

«هذا صحيح».

استندت فكتوريا الى المنضدة وحدقت فيها بشدة وقالت:

«ليست فقط سخيفة، بل خبيثة وحاقدة. وايضا غبية!».

بسطت صوفي قبضتها المشدودة:

«لماذا أخبرت والدي بذلك الأمر؟».

«لم أخبره بشيء. جاء الى غرفتي يحمل لي رزمة تركتها في السيارة ورأى كل شيء بنفسه».

شدت صوفي على احدى ضفائرها بشدة وقالت:

«انه لم يضربني».

«هل من عادته ضربك؟».

«كلا. ربما فعل ذلك».

«يا للهراء لم أكن أتصور ان والدك رجل قاس».

«انك لا تعرفينه جيداً يا آنسة؟».

«اقترح ان نترك موضوع والدك جانباً ونبدأ بالكشف عن مدى معرفتك الحقيقية. والآن عندنا اختبار ذهني بالحساب. ساعطيك عشر مجموعات

تحسبينها بذهنك وتكتبين في اسفل هذه الورقة أجوبتك وندققها جميعاً».

دهشت فكتوريا عندما أدركت ان الصباح مر بصورة معقولة وبسرعة وكان ناجحاً على نحو معتدل، بعد محاولة أولية زعمت صوفي فيها الجهل اقتنعت بأن تثير ذكاءها ضد فكتوريا. وبعد فترة من الزمن بدا عليها الاهتمام بالرد على تحديات فكتوريا.

عندما احضرت ماريا الشوكولا الساخنة لكليهما في الحادية عشرة رأتهما جادتين في العمل. فكرت فكتوريا انها لمحت خيبة أمل في عيني المرأة المسنة لأنها كانت تود ان تخفق المربية الشابة، كما اخفقت سابقاً المربيتان الأخريان. كان حبها لصوفي شديداً لدرجة انها كانت تعترض على كل شخص يحاول النيل منه ولو جزئياً.

تناولت الاثنتان طعام الغداء في المطبخ مع ماريا وغوستاف ألقت صوفي بعد الانتهاء من تناول وجبة الطعام نظرة فيها رغبة شديدة على غوستاف عندما انتعل حذاءه العالي الساق وارتدى معطفه متهيئاً للقيام بأعباء وظيفته. لذلك لم تبد أي اعتراض عندما اقترحت فكتوريا عليها الرجوع الى العمل.

كانت صوفي على ما لاحظت فكتوريا عظيمة القدرة على الفهم واستيعاب المعلومات بسرعة. اسئلتها تتسم بالذكاء. ولو ان فكتوريا شعرت من حين الى آخر بأنها تصوِّب اليها نظرات تشوبها التأملات فان علاقتهما كانت أشبه بمشروع تجاري بين مدرِّسة وتلميذتها.

وفي ساعة متأخرة من بعد الظهيرة عندما كانت فكتوريا تلقي دروسها على صوفي سمعت صوت سيارة البارون تدخل ساحة القصر. أوقفت صوفي فوراً ما كانت تعمله، ورفعت بصرها الى الساحة بحماس وكانت عيناها تعبِّران أبلغ تعبير عن مشاعرها. قالت فكتوريا وهي متفهمة موقف صوفي:

«يمكنك ان تنهي الآن دروسك يا صوفي. هل ترغبين بالذهاب لتحية والدك؟».

تلألأت عينا صوفي. ثم تجهّم وجهها وقالت بنبرات تشوبها التعاسة:

«انه لا يرغب برؤيتي فهو غير راضٍ عني!».

«هذا هراء يا صوفي! انك عملت حسب ما قال والدك وأرهقت نفسك

بالعمل طوال النهار. ألا تودين ان تقولي له ما فعلناه؟».
قالت صوفي متأملة:
«كلا لن أذهب».
«في الحقيقة انك تتصرفين تصرّف الأطفال».
قطبت صوفي حاجبيها وهي تتميز غيظاً:
«لست طفلة صغيرة! عمري عشر سنوات تقريباً. أنا فتاة مراهقة».
هتفت فكتوريا والابتسامة تعلو ثغرها:
«من أين جئت بهذه الكلمة؟ اذن توقفي عن التصرف كالطفلة الصغيرة! والدك ليس بالرجل الذي يحمل في قلبه ضغينة».
«يبدو انك تعرفين والدي كثيراً يا آنسة! لا تحاولي ان تقولي لي شيئاً عن والدي! انني أعرفه اكثر منك واكثر من اي شخص آخر».
أجابت فكتوريا برصانة:
«أشك بذلك. لست في سن تستطيعين ان تميّزي بين شيء وآخر. أما والدتك فلديها ما يؤهلها لمعرفة ذلك».
هتفت صوفي بازدراء:
«والدتي! أنت لا تعرفين شيئاً عنها!».
قالت فكتوريا بنفاد صبر:
«اذا كانت شبيهة بك فلا أريد معرفتها».
ألقت صوفي قلمها على المنضدة وسارت نحو الباب وقبل ان تمسك المقبض ألقت على فكتوريا نظرة خبيثة وقالت بصوت خافت وغامض:
«في اي حال يا آنسة عليك ان تكوني حذرة في معاملتي والا حبستك في البرج الشمالي».
قابلت فكتوريا وقد ساورتها الشكوك وأجابت بسخرية.
«آه نعم. ومع من؟».
أجابت صوفي وقد تجهّم وجهها:
«مع والدتي طبعاً».
وقبل ان تتمكن فكتوريا من الاعتراض اندفعت كالسهم من الغرفة وأغلقت وراءها الباب بعنف.
رفعت فكتوريا عينيها نحو السماء بانزعاج وسخط كبيرين، وقالت

لنفسها: من المستحيل تثقيف هذه الفتاة! بينما أفكر بأنني خطوت معها خطوة الى الأمام اذا بها تقوم بتغيير كامل ومفاجىء في مسلكها وتتلاشى جميع الانجازات السابقة.
أطلقت فكتوريا تنهيدة ثم جمعت أدواتها وقرأت بعض اعمال صوفي. كانت كتابتها ممتازة بالنسبة الى فتاة بعمرها ولكن بدون ريب تناقص اهتمامها في نهاية النهار فكانت هناك أخطاء اكثر، وزيادة في الاهمال.
هزت فكتوريا كتفيها استهجاناً وهي تفكر بأنه لم يتح لصوفي سوى انضباط ثقافي ضئيل، لكن اليوم بكامله لا يعتبر غير ناجح تماماً.
عندما دخلت المطبخ اخذت ماريا تحدّق فيها وأمارات الذهول بادية على محياها، حتى ان غوستاف نزع غليونه من فمه ونهض منتصباً على سبيل الكياسة البالغة.
شعرت فكتوريا بأنها مضحكة. كانت مستخدمة هنا وليست ضيفة وظهورها بهذا الشكل يبدو تافهاً بالنسبة الى هذين الخادمين المسنين. لكن ماريا استعادت رباطة جأشها بسرعة فهزت كتفيها وعادت الى عملها لتحريك الحساء فوق الموقد. كانت فكتوريا مترددة فيما اذا كان عليها ان تعتذر وتعود الى غرفتها واذا بالباب يفتح ويدخل منه البارون. كان خارج القصر وكان شعره مبللاً بالثلج وبدأت فكتوريا ترتجف بسبب دخول هبة ريح باردة الى الغرفة.
صوّب نظره الى القامة النحيلة في الثوب الكهرماني فتحرّك في عينيه الزرقاوين اللامعتين وميض مثير. أحنت فكتوريا رأسها بارتباك ثم سارت الى جهة ماريا وقالت بصوت خفيض:
«هل هناك شيء استطيع القيام به؟».
التفتت ماريا اليها بنظرة تشوبها الشكوك وقالت:
«في هذه الملابس يا آنسة لا أعتقد ذلك».
ثم ألقت نظرة عجلى على رب عملها وقالت بنبرة دافئة ومرحبة:
«هل أنت مستعد لتناول طعام العشاء؟».
«نعم يا ماريا».
نزع البارون عنه معطفه السميك المصنوع من جلد الغنم. كان يرتدي بنطالاً داكناً وكنزة صوفية رمادية غليظة مفتوحة العنق. علّق معطفه

بالقرب من الباب ثم حدّق مرة أخرى بفكتوريا وسألها متجهماً:
«هل ستخرجين؟».

استدارت فكتوريا ليرى البارون خديها الأحمرين بفعل حرارة النار.

«كلا يا سيدي البارون. انه ثوب دافىء شعرت ان بارتدائه بعض التنويع بالنسبة الى البنطال».

هز البارون كتفيه مستهجناً وقال:

«لست بحاجة ان تفسري لي وضعك يا آنسة».

كانت ملاحظته باردة جداً ولكنها أدركت انه لم يكن مسروراً بمظهرها. وأردف قائلا:

«ومع ذلك بما انك مرتدية ملابس غير ملائمة لمطبخ قصر الربشتين اقترح عليك ان تنضمي الي في مكتبي لتناول الطعام».

اعترضت فكتوريا بعدم ارتياح:

«لم اكن أتوقع ذلك يا سيدي البارون».

«ألم تتوقعي ذلك؟ على الرغم من هذا سنتناول الطعام في مكتبي. هل لديك اعتراض يا ماريا؟».

رقت شفتا المرأة المسنة ولكنها اطلقت جواباً يشوبه عدم المبالاة بانحناءة مبالغ فيها عن قصد. أشار البارون الى فكتوريا بأن تسبقه الى مكتبه. ترددت فكتوريا والقت نظرة عجلى على ماريا التي كانت مستغرقة في عملها ثم سارت أمام رب عملها عبر الرواق. كانت تتوقع ان ترى صوفي في المكتب وبعد المجاملة المعتادة قال البارون:

«صوفي مرهقة. تناولت طعامها قبل الموعد وهي الآن في فراشها. وعدتها ان امرّ بها وأتمنى لها ليلة سعيدة عند رجوعي من العناية بالحيوانات. ربما تعذرينني ريثما أقوم بهذا الواجب الصغير».

«طبعاً».

ضائعة في الأفكار التي تراودها واذا بالباب يفتح مجدداً ويدخل مضيفها. وثبت من مكانها بصورة لا شعورية وهي لا تستطيع ان تعي ما حولها. أدركت بعدئذ حقيقة وضعها ووقفت منتصبة عندما سار البارون عبر الغرفة باتجاه المدفأة.

كان قد بدّل كنزته الصوفية بقميص أبيض من النسيج الحريري الصقيل

تعلوه ربطة عنق زرقاء داكنة وسترة طويلة ضيقة مطرزة لا أكمام لها من المخمل الداكن. كان يبدو في ثيابه الداكنة أصغر من عمره تساءلت فكتوريا ما اذا كان بدّل ثيابه لأجلها، ولكنها كانت تشك في ذلك.

«حسناً هل استطيع ان اقدم لك شراباً قبل تناول وجبة الطعام؟».

«شكراً لا ضرورة لذلك. لا أشرب شيئاً».

وبعد ان ألقى عليها نظرة عجلى ذهب وسكب لنفسه شراباً أخذ يحتسيه وهو يحدق باللهب ثم نظر الى فكتوريا مرة أخرى وضاقت فتحتا عينيه. وأضاف باقتضاب:

«قالت لي صوفي انكما قمتما بعمل شاق هذا اليوم».

طوت فكتوريا يديها في حضنها وقالت موافقة:

«اشتغلت صوفي كثيراً وأصبحت مطيعة. ليست متأخرة على الاطلاق كما جعلتني أعتقد. وستلحق بمستوى مثيلاتها في أقرب وقت. وعلى وجه التخصيص خطها جيد».

تأمل البارون السائل في كأسه.

«وهكذا تعتقدين اننا اجتزنا العقبة الأولى؟».

تجهمت فكتوريا قليلا وقالت:

«اعتقد ذلك يا سيدي البارون. ولكن لا تتخيل انني غير متفهمة لوضع صوفي، أعرف ان الطريق أمامنا لا تزال طويلة، وهي متيقنة من انني لست أقل حساسية من المربيتين الأخريين».

ابتلع البارون ما تبقى من شرابه واستدار ليسكب لنفسه قدحاً آخر. وتساءل متهكماً:

«وأنت يا آنسة؟».

«أعتقد ذلك».

«انك حتماً مختلفة يا آنسة».

كانت نظراته مصوبة اليها بشدة:

«لماذا اخترت تبديل ثيابك للعشاء؟».

نهضت فكتوريا غير قادرة على الجلوس في هذه اللحظة من التدقيق.

«كما قلت لك يا سيدي البارون. تعبت من ارتداء البنطال. هذا الثوب ليس بذاته رسمياً».

«ثوب طويل ليس رسمياً».

«طبعاً لا. في انكلترا ترتدي السيدات الفساتين الطويلة عند الافطار وعند العشاء».

«كما ترين انني من الطراز القديم».

كان يود فكتوريا ان تقول بأن ملابسه لم تكن من الزي القديم، بالعكس كان دائماً يبدو وسيماً في كل ما يرتديه وذلك بسبب طول قامته. كبحت رغبتها في هذه الأقوال وقالت بدلاً عنها:

«انني الآن أسألك عن ملابس صوفي يا سيدي البارون».

كانت عيناه باردتين فأجاب:

«آه. نعم».

ترددت فكتوريا وكانت تختار كلماتها بعناية فقالت:

«ان ملابس صوفي ليست جذابة تماماً. أليس كذلك؟».

«ماريا تخيط لها ثيابها. انها ماهرة».

«هل من الضروري ان تكون هكذا واسعة وعملية؟ انها بحاجة الى الوان زاهية تزيل شحوب قسمات وجهها. انها بحاجة لثوب يتفق مع الزي السائد».

«هل تذمرت صوفي؟».

«طبعاً لا. أنا لا أزال في طليعة أعدائها!».

شد البارون على شفتيه بصورة طفيفة.

«اذن هذه هي فكرتك. محاولة أخرى لكسب ثقتها؟».

«آه ما الفائدة! يمكن القول ان تعبيرك يدل على عدم تأثرك».

اصبحت نظرات البارون دكناء.

«هل هذه هي الطريقة التي يتعامل بها احد المستخدمين مع رب عمله في انكلترا؟».

«لا اعرف ذلك. لم استخدم أي شخص قط!».

تذكرت قصة كانت قرأتها مرة حول أمير وفتاة فلاحة. حتماً كان للبارون بعض اللحظات يثبت فيها منزلته الرفيعة وهذه اللحظة هي احداها. فقالت:

«لا أعني ذلك. اجد فقط ان وضعك غير منطقي».

«وغير منطقي يا آنسة؟ وكيف؟».

شعرت فكتوريا بأنها تخوض شيئاً فشيئاً في ماء متجمد. بدأت تتكلم كلاماً غير مناسب.

«حسناً. ان مشاكل صوفي لا يمكن حلها في حجرة التعليم».

«انها حتماً المشاكل التي لها علاقة بك يا آنسة».

حدقت فكتوريا فيه بنفاد صبر وصاحت قائلة:

«لماذا انت لدقيقة واحدة هادىء ولطيف وفي الأخرى تنفجر تماماً بوجهي؟ أنا لا أحاول ان أتدخل في شؤونك الخاصة. أريد فقط ان أساعد صوفي بأية وسيلة كانت!».

بات البارون مستشيطاً غيظاً الآن. رأت ذلك في عينيه المتجمدتين المتلألئتين، وفي صلابة فمه وفي الخطوط العميقة المرسومة حواليه. احتسى الكأس الثانية من الشراب ثم أعاد الكأس على المنضدة محدثاً قرقعة واضحة. ونهض منتصباً على قدميه وقال بحدة:

«من الأفضل لك ان تساعدي صوفي وتساعدي نفسك بتوجيه نشاطاتك باتجاه الأمور الدراسية الرسمية! لا أريد ان تملي عليّ الأوامر من فتاة وصلت ريشتين منذ أقل من شهر».

ضغطت فكتوريا على شفتيها واعترضت بشدة قائلة:

«لم أحاول ان أملي عليك الأوامر. وكل ما في الأمر انني ارغب ان تثق بمناهجي كما أثق أنا بها».

«وما يعني ذلك يا آنسة؟».

«لا أتوقع منك ان تفهمني».

تحرك البارون بسرعة رغم ضخامة جسمه ووصل الى الباب قبلها واستند اليه وثنى ذراعيه وقال وهو ينظر اليها بتقييم هادىء:

«كلا يا آنسة. على الرغم من تهور الشباب الذي تتسمين به، فانك تثيرينني وفضلاً عن ذلك لا يمكننا اضاعة متعة النظر الى هذا الثوب. أليس كذلك؟».

توهّج خد فكتوريا وقالت بنبرات يشوبها التوتر والغضب:

«انك الآن تهزأ بي يا سيدي البارون. ارجوك ان تتحرك بعيداً عن الباب! ارغب بأن تتركني وحدي».

تردد البارون لحظة. وفي حركة خفيفة من كتفيه وقف جانباً. واذا بالباب يطرق وسارت فكتوريا بخطى سريعة الى قرب المدفأة بينما كان رب عملها يحاول فتح الباب.

كانت ركبتاها ترتجفان قليلاً ولم تكن ترغب ان تراها ماريا على هذه الحال. دخلت ماريا الغرفة حاملة صينية واسعة ووضعتها على المنضدة.

«سأحضر لك قهوتك في ما بعد يا سيدي البارون».

ووجهت نظرها باتجاه فكتوريا بفضول ظاهر وقالت:

«ربما الآنسة ستقوم بتقديم وجبة الطعام».

وجه البارون اليها ابتسامة حارة وقال بلطف:

«طبعاً يمكننا ان نتغلب على هذه المشكلة. شكراً يا ماريا».

كان من الصعب على فكتوريا ان تعتقد ان هذا الرجل هو نفسه الذي كان قبل بضع دقائق يسلقها بلسانه.

ذهبت الخادمة وأغلق البارون الباب وراءها باحكام وقال لها بسخرية:

«يبدو انه لم يعد لك الخيار بالنسبة الى المكان الذي ستتناولين فيه طعام العشاء. الا اذا كنت ترغبين في تحدي غيظ ماريا باعادة وجبة طعامك الى المطبخ».

أحنت فكتوريا رأسها وأجابت بتوتر:

«لست جائعة يا سيدي البارون».

جاء البارون الى المنضدة وتفحص محتوى الصينية ووبخها هازئاً:

«تعالي يا آنسة. ماريا هيأت لنا وجبة لذيذة. كُلي وبعدئذ نتكلم».

على الرغم من مقاومتها لم تستطع ان تمتنع عن التمتع بهذه الوجبة. اما مضيفها فلم يأبه لكل هذه المخاوف واستطاب الأطعمة اللذيذة. سألته ماريا بلطف:

«هل تريد شيئاً آخر يا سيدي البارون؟».

هز البارون رأسه ونهض ليغلق الباب وراءها ثم تمتم قائلاً:

«شكراً. كان الطعام شهياً جداً. ليس في أي مكان في النمسا افضل منه».

تورّدت وجنتا ماريا فرحاً.

وسُرّت فكتوريا لأن مديح البارون سيبدد الكراهية الأكيدة التي شعرت

يها للقيام بخدمتها.

بعد ان ذهبت مدبرة المنزل رجع البارون الى المنضدة حيث كانت فكتوريا وقال:

«هل هناك ما يزعجك يا آنسة؟».

«وما هو الشيء الذي يمكن ان يزعجني يا سيدي البارون؟».

ثم أضافت:

«أرجو ان تعذرني سأذهب الى غرفتي».

سكب البارون قدحين من القهوة وقدم لها واحداً. كانت سيماؤه غريبة وساورتها فكرة سخيفة بأنه يمكن ان يكون الآن كريماً طالما سارت الأمور حسب مشيئته.

رشفت قهوتها بسرعة فاحترق فمها. قدم لها البارون قدحاً آخر، فاعتذرت عن القبول. تقدم الى المدفأة وتجهّم وجهه قليلاً وقال لها فجأة عبارة أثارت الذهول في نفسها:

«يبدو انه لا يمكن استرضاؤك يا آنسة؟ هل تحافظين دائماً على طريقتك الخاصة هذه؟».

«ليست المسألة محافظتي على طريقتي الخاصة يا سيدي البارون وكل ما في الأمر انّي اجد من الصعب ان اتقبل دائماً سلطاتك القضائية».

هتف البارون مستهزئاً:

«هيا. هيا يا آنسة، انك تجعلين مني حاكماً مطلقاً».

ألقت فكتوريا عليه نظرة غاضبة وقالت:

«أولست كذلك؟».

استدار البارون مسنداً ذراعه الى اطار المدفأة وقال بحدة:

«لا يهمني ما اذا رآني الناس هكذا. في الواقع سأذهب بعيداً في هذا الاتجاه ولا أقبل بأن يخالفني احد فيه. اذا كنت ابدو لك هكذا فلأنك تصرين على التصرف بأسلوب مزعج. ان خبرتي السابقة بالمربيات هي انهن كن ينظرن الي كمرشد وليس بالطريقة الأخرى التي تتوهمينها».

تركت فكتوريا كتفيها تتراخيان:

«ان ما تعنيه هو انني مهما أبديت من الآراء فلا تعيرها اهتماماً البتة وأخيراً لا تعمل الا وفق مشيئتك».

اجابها وقد اشتد صوته صلابة:

«أحاول ان اكون صبوراً معك يا آنسة. لكنني ارى ان ذلك في منتهى الصعوبة. هل عليّ ان أكرر بأن واجباتك هنا محدودة؟».

«وما هو الضرر في جعل صوفي تبدو اكثر جاذبية؟ انها منكمشة على نفسها في أمور اخرى. ربما كان الهاؤها بالثياب الجميلة يحدد لجوءها الى الخيال».

«من أين تقترحين ان نحصل على هذه الثياب لصوفي؟ هل عليّ ان اذكرك بأن المتانة في الملابس في ريشتين لها شأن اكبر من الجمال السطحي؟».

«يمكن للأشياء ان تكون متينة وجذابة في آن واحد! احضرت بعض الأقمشة ويمكنني خياطتها متزراً بغير اكمام وبلوزات. وهذا يشكل تغييراً في الملابس الصوفية التي ترتديها دائماً».

وسألها بسخرية:

«هل تقولين انك حالياً تخيطين ثياباً يا آنسة؟».

«طبعاً. حسناً يا سيدي البارون هل تأذن لي؟».

اطلق البارون تنهيدة عميقة ونهض من مقعده المريح. تفحص وجهها المتسم بالتحدي لفترة طويلة ثم اطلق ايماءة يشوبها نفاد الصبر.

«حسناً جداً اذا كان هذا العمل يسليك. طبعاً سادفع لك ثمن القماش».

«هذا ليس ضرورياً يا سيدي البارون».

«أصرّ على ذلك. لا بد انك اشتريت هذا القماش لاستعمالك الشخصي. ربما نكون فقراء يا آنسة ولكننا غير مستعدين لقبول الحسنات».

«حسناً جداً اذا كنت مصراً».

كان واقفاً قربها يحدجها بعينيه الزرقاوين اللامعتين.

«كان في انكلترا رجل أردت الهروب منه؟ قولي لي لماذا؟».

توهج وجه فكتوريا احمراراً وردت عليه بنبرات متقطعة.

«ألم تصبح انت يا سيدي البارون شخصاً مزعجاً؟».

وافق على ذلك بصوت أجش وقال:

«وربما ان فتاة جميلة مثلك لا يمكن ان تفتش عن العزلة في جبال الألب في الشتاء الا اذا كانت ترغب في الهروب من شيء. ويبدو معقولاً ان يكون هذا الشخص رجلاً من جنسي».

فجأة دوى صوت سيارة في ساحة القصر وتحرك البارون نحوها وكان الابهام يشوب سيماءه. قال البارون وهو يلقي حطبة في النار:

«يبدو ان عندنا اليوم زائراً يا آنسة. بدون ريب هو الدكتور زيرمن. عليك ان تبقي لتستقبليه».

كانت فكتوريا على وشك ان تقول له بأنها التقت سابقاً بالدكتور زيرمن ولكن البارون مشى بخطى واسعة عبر الغرفة وخرج من الباب قبل ان تبدأ بحديثها معه تاركاً فكتوريا في حالة غريبة من القلق.

دخل الرجلان الغرفة سوية وهما يتبادلان الحديث. وكما كان شأن ماريا معها فالدكتور زيرمن لم يكن يتوقع ان يرى فكتوريا في جناح البارون. ولم تبد الا دهشة خفيفة في عينيه. ابتسم لها بحرارة قائلاً:

«انني مسرور جداً بلقائك مرة أخرى».

القى البارون على فكتوريا نظرة تشوبها الشكوك ثم حدق في كونراد زيرمن وسأله بنبرة باردة:

«هل تعرف الآنسة مونرو؟».

«طبعاً يا عزيزي هورست التقينا في زيارتي الأخيرة الى القصر وقد رحبت بي الآنسة مونرو بهذه المناسبة».

بدا الارتباك على فكتوريا فقالت:

«في الواقع كنت في قاعة الجلوس عندما وصلت».

تمتم الدكتور زيرمن راغباً في مضايقته:

«وألقيت انت عليها يا هورست نظرة ترحيب».

ابتسم كونراد ابتسامة عريضة وألقى على فكتوريا نظرة عجل مشجعة وقال:

«كنا نتناقش في امكانية تعلم السيدة الشابة كيفية التزلج. أليس كذلك؟».

شعرت فكتوريا ان رب عملها يراقب انفعالها بعناية. كان كونراد زيرمن يعامل فكتوريا كضيفة البارون وليس مستخدمته. ألقت فكتوريا

ببصرها الى كونراد معتذرة وقالت:
«في الحقيقة عليّ ان أذهب. استمتعوا باللعب».
ثم سارت نحو الباب. فاعترض كونراد قائلا:
«لا تذهبي. الا يجب ان نتخذ بعض الترتيبات؟».
وقف البارون وظهره الى المدفأة ينظر اليها بعينين ضيقتين. كانت فكتوريا مذهولة لأن كونراد بدا غير آبه بالجو المتوتر الذي يكاد يكون ملموساً. فقالت:
«أعتقد ان علينا ان نترك الآن بحث هذا الأمر وفي الواقع ليس عندي متسع من الوقت للقيام بذلك».
قال كونراد ساخراً:
«يبدو عليك يا هورست انك مراقب أرقاء لا يرحم».
ألقى البارون عليه من خلال أهدابه الكثيفة نظرة عجلى وتساءل متجهماً:
«مراقب أرقاء؟ بدون ريب الآنسة مونرو قالت هذا الكلام!».
ابتسم كونراد ابتسامة عريضة:
«لا أعتقد ذلك. لا يمكن للآنسة مونرو ان ترثي حالها لي».
كانت فكتوريا تتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعها. هزت رأسها معتذرة:
«أرجو معذرتكما».
ثم توارت عن الغرفة بابتسامة اعتذار. وفي الرواق أخذت تتنفس بعمق لتهدىء نفسها. يا للدقائق المزعجة!

٧- المأزق الحرج

مرّت الأيام القليلة التالية خالية تقريباً من الأحداث. كان من الواضح ان صوفي اصبحت تتقبل دور فكتوريا كمربية لها وانهمكت في تلقي دروسها بحماس محدود. وشعرت فكتوريا انها تستمتع سرّاً بنجاحها وازدهرت كالزهرة تحت تأثير التشجيع. لكن خارج حجرة التعليم لم تكن الامور تسير بهذا الاتجاه فقد رفضت صوفي بازدراء صداقة فكتوريا وقضت اكثر وقتها على انفراد، اما في الاصطبلات مع الخيل او في مكان آخر حول ممتلكات القصر.
احياناً كانت ماريا في المطبخ او برفقة غوستاف عندما يقوم باعماله لكنها لم تكن تحب رفقة فكتوريا. لم تغضب فكتوريا لهذا الامر علماً منها بأن صوفي كانت ترغب في ذلك. كانت مستعدة للانتظار. فالفتاة تحت عنايتها لمدة لا تقل عن خمس ساعات يومياً ولم تكن تتوقع انهزاماً فورياً في كل جهة.
كانت فكتوريا تملأ يومها بتعليم صوفي وتهيئة الدروس لليوم التالي.
وظلّت تتناول وجبات طعامها مع ماريا وغوستاف في المطبخ ولم تحاول مرة اخرى ان ترتدي احسن ما عندها للعشاء.
تتحاشى ربَّ عملها قدر استطاعتها الا عندما تكون بحاجة لتوجيهاته حول ابنته.
قبل بضعة ايام وصلتها رسالة من عرّابتها. كان بصورة مميزة طويلة وفيها وصف مسهب عن الحوادث التي وقعت خلال الاسبوعين من مغادرة فكتوريا لانكلترا. نوّهت بكل مناسبة اجتماعية حضرتها. واعطت قائمة مفصلة عن الضيوف. قرأت فكتوريا الرسالة بنفاد صبر مدركة ان عرّابتها كانت تتحاشى ذكر مرديث، لكنها فوجئت بها تنوّه به. قرأت العبارة المتعلقة به بفضول لا يمكن اخفاؤه: «انك تنتظرين بلهفة سماع اخباري حول مرديث هموند. ماذا يمكنني ان اقول عنه؟ كيف يمكنني الا استخف

بغرور هذا الشاب؟ انه يعتقد ان له عليك سلطة علوية. اصرّ على مضايقتي بصورة متواصلة. حتى كاد يطير رأسي من الغيظ.

«في اي حال جعل نفسه بغيضاً جداً ولا يمكن ان اتصوّر ما الذي جذبك اليه. لا يفكر الا بالمال ويعتبر بأن كل شخص يمكن شراؤه بالمال! تصوّري ذلك! حسب ما تناهى الى سمعي انه لم يأل جهداً في التفتيش عنك واجد هذا الامر الصغير منه مثيراً. انه يقتفي اثرك. ما هو حالك؟ لم تكشف الرسالة البريدية الا القليل.

ماذا يشبه القصر؟ اتعلمين انني شديدة الشوق لسماع اخبارك؟ ما هي اخبار اهل القصر؟ هل البارون وزوجته يعاملانك كعضو في الاسرة؟ هل يستضيفان كثيراً من الناس. اعتقد انه في جبال الالب مناسبات اجتماعية كثيرة في الشتاء، وربما هناك مراكز العاب رياضية او ما يشابه ذلك. قولي لي يا عزيزتي هل التقيت بشبان جميلين؟ آمل الاّ تتورطي بعد الآن مع اشخاص غير مناسبين. يجب ان تكتبي لي ايضاً عن الفتاة الصغيرة صوفي افترض انكما اصبحتما الآن صديقتين حميمتين. كنت دائماً اعتقد ان الانسجام مع البنات اسهل».

رسالة الخالة لوري انيقة كما هو شأنها دائماً في جميع رسائلها.

شعرت بارتياح لمعرفة ان مرديت يفتش عنها ويرغب في اعادتها الى لندن وهذا ما جلب الأمان نوعاً ما الى شعورها ولو انها ادركت انه لو حضر لعندها فسيكون بامكانها التعامل معه على نحو كامل الآن. وفي اليوم التالي اخبرتها ماريا عند تناول طعام الافطار بأن البارون سيقود سيارته الى قرية ريشستين مصطحباً معه صوفي. اكدت ماريا بحزم: «ان الفتاة لم تتناول طعام الافطار منذ ايام طويلة. انه لمن المفيد لها ان تخرج مع والدها».

«لا اعتراض لي على ذلك».

رفعت ماريا حاجبيها وادخلت يديها في العجين تجبله بمهارة.

«على الرغم من ذلك منذ مجيئك يا آنسة لم يخصص البارون غير وقت قليل لابنته».

ساور فكتوريا الشعور بالسخط لهذا الاتهام واذا بالبارون يدخل ويحييها بلطف. ويسألها وهو ينزع معطفه السميك المصنوع من جلد الغنم قائلاً:

«هل قالت لك ماريا بانني سأقود سيارتي الى قرية ريشستين؟».

«نعم يا سيدي البارون».

«حسناً، حسناً، هذا صباح منعش ستتمتع صوفي بهذه الرحلة في السيارة».

«انا متأكدة بانها ستستمتع بها».

«هل انت جاهزة يا آنسة».

كان يراقبها بدقة وهو يزرّر معطفه. وهتفت فكتوريا بصورة غير متزنة وكانت عيناها مصوبتين بسرعة الى ماريا:

«انا».

تجهم وجه البارون وقال:

«طبعاً! الا ترغبين بالمجيء؟».

اطلقت فكتوريا ايماءة لا شعورية. احست بأن نظرات ماريا مصوبة اليها وتأكدت بأن المرأة المسنة ستقترح بأن تترك البارون وابنته يخرجان معاً لوحدهما.

لم تكن تعرف ماذا تقول او ماذا تعمل. كان وضعها محرجاً. واخيراً قالت:

«اعتقد انه من الافضل الاّ ارافقكما يا سيدي البارون».

اومضت قسمات وجه ماريا كثيراً ولكن يظهر ان البارون لم يكن يشاطرها هذا الشعور. قال بحزم:

«صوفي على علم بمرافقتك يا آنسة فلا حرج من هذه الناحية».

«ارجوك. افضل ان ابقى هنا. عندي اشياء يجب ان اعملها. يجب ان انظف غرفتي، واغتسل».

رد بحدة:

«حسناً جداً يا آنسة. فهمت».

وبدون ان ينبس بكلمة اخرى مشى بخطى واسعة الى خارج المطبخ.

نظرت الى ماريا. كانت المرأة المسنة منهمكة بتقشير كمية من البطاطا وبدا عليها انها لا ترغب في التحدث الآن. على الاغلب كانت مسرورة جداً لما حصل.

لم يعد البارون وصوفي لتناول طعام الغداء. بعد ان انتهت فكتوريا من تناول وجبتها شعرت بأن لديها متسعاً من الوقت لانجاز بعض المهام.

انهت عملها اليومي الخفيف في المنزل ونظفت غرفتها وحضرت دروس اليوم التالي ودققت في ما كتبته صوفي. لم يكن لديها اي عمل آخر غير ان تستريح بالقرب من المدفأة وتستمتع بالدفء وتقرأ الكتب.

وفي يوم كهذا والشمس تعطي قمم الجبال مظهراً جذاباً خادعاً فتحوّلها الى ثلوج ذهبية وتجعل من الجليد ما يشبه الجواهر المتلألئة. كان من المستحب ان يبقى المرء داخل منزله.

سمعت صوت سيارة فتطلعت من نافذة قاعة الجلوس لترى كونراد زيغمن يثب من سيارته الستايشن لوح بيديه عندما رآها ومشى بخطى واسعة سريعة نحو الباب الرئيسي.

رجعت فكتوريا الى الوراء لانها خشيت ان ترحب به في غياب البارون. على ان الطبيب الشاب جاء توّاً اليها كالمعتاد وابتسم لها ابتسامة عريضة تنم بالمرح. ردت عليه فكتوريا بمثل تحيته وقالت:

«اخشى انك لن تجد البارون».

«اعرف ذلك. شاهدت سيارته في ريشستين هذا الصباح. كان في طريقه لتناول طعام الغداء مع اليوميس الذين يعيشون في الوادي الواقع بعد القرية».

«نعم اذن لماذا جئت الى هنا؟».

«لكي اخذك معي للتزلج!».

انحنى ليربت على الكلبين.

«قلت لنفسي: ليس لدى عزيزتي الآنسة مونرو ما تعمله. عليّ ان اقوم بتسليتها».

لم تستطع فكتوريا ان تخفي الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها فهتفت آسفة:

«لا يمكنني ان اخرج بينما البارون غير موجود».

«ولماذا؟».

جاءت ماريا من المطبخ عبر الباب تمسح يديها بمئزرها. هزت رأسها محيية الطبيب بلطف ثم سارت في سبيلها.

«لماذا لا تستطيعين الخروج يا آنسة؟ اذا كان البارون خرج لمقابلة فروبومان فلا يستطيع الرجوع قبل هبوط الليل. ما هو الضرر في الخروج

والاستمتاع بالهواء الطلق المنعش؟».

قال كونراد متحمساً:

«ان رأيي يتطابق مع رأيك تماماً هيّا اسرعي يا آنسة. الا تحبين ان تذهبي خارج القصر وتستمتعي بمناظر المنحدرات؟».

ابتسمت فكتوريا. كان هذا ما تريده فأجابت ببطء:

«اوافقك على رأيك».

ثم استدارت الى ماريا فقالت:

«ماذا اذا جاء البارون وانا خارج المنزل؟».

اطلقت ماريا ضحكة خفيفة وقالت:

«سأقول له الى اين ذهبتما يا آنسة لا تخشي شيئاً سوف لا ينهار قصر ريشستين بغيابك».

«حسناً جداً اذن هل يمكنك ان تنتظرني حتى اجهز نفسي؟ انت تعلم انني غير مجهزة».

هز كونراد رأسه وقال جازماً وامائر الرضى بادية على محياه:

«عندي ما يكفي لاثنين والآن اسرعي يجب ان لا نضيع الوقت طالما ان ضوء الشمس يسطع في جميع الارجاء».

كان وقت بعد الظهيرة جميلاً ومنعشاً. قاد كونراد السيارة حتى قمة الوادي حيث الجبال تشكل منحدرات سهلة العبور مثالية للمبتدئين.

على بعد قليل من القصر كانت هناك بقعة لم تجزها فكتوريا سابقاً وكان يمكن للمرء من اعالي قمراتها ان يرى تحته مداخن القصر ذات الابراج.

نال التعب من فكتوريا اولاً. كان التزلج مضنياً. فالمشي الطويل المجهد عبر جوانب المنحدرات يتطلب خبرة طويلة فاذا بالمتزلج بعدها ينحدر بثوان معدودات. ان خبرتها الوحيدة بالتزلج كانت في سان موريتز حيث كانت تستعمل مصعداً للتزلج.

ومنذ مدة لم تقم بمثل هذه الرياضة التي تتطلب جهداً قوياً.

سألت كونراد اذا كانت تستطيع ان تجلس برهة فاقترح ان يعودا الى السيارة وهناك قدّم لها قارورة قهوة وبعض الفطائر الحلوة المملوءة بالقشدة والتي قال ان والدته صنعتها لها.

احتست فكتوريا القهوة بحماس وراحت انامالها تملأ الكأس الكبيرة وهي تحدق في الثلوج غير المتناهية المتناثرة في الجبال.

اشعل كونراد لفافة تبغ واستمتع بأنس ذلك المكان على الضوء الباهت وقد قاربت الشمس المغيب. كان شاباً مستعداً لتلبية كل مطلب واستمتعت برفقته الخالية من الهموم. بادرها بالقول:

«قولي لي هل انت سعيدة في ريشتين؟».

«طبعاً العمل مع صوفي فيه كثير من التحدي ولكنه جيد جداً».

هز كونراد رأسه وقال:

«هذه الفتاة الصغيرة اصبحت مشكلة. منذ مرضها لم يتيسر لها الا قليل من الانضباط. وهكذا فأنا من يدفع الثمن. يمكن ان يكون الشلل مزعجاً جداً للطفل. اعتقد ان المرء يعطف على البالغ اقل من عطفه على الطفل. لحسن الحظ انها ابلت من مرضها ابلالا تاما برعاية وصبر والدها الذي امضى ساعات طويلة يشجعها ويعلّمها ان تثق في المداواة الطبيعية. ذراعاها لا يزالان هزيلين بصورة محزنة ولكنهما يتحركان بانتظام».

تمتمت فكتوريا مترددة:

«صوفي لا تذكر والدتها».

صوّب اليها كونراد نظرة مدققة وقال موافقاً على نحو ثقيل:

«كلا لا اظن انها تذكرها».

كانت فكتوريا تتفحص القهوة في قعر القارورة:

«هل عالجت صوفي عندما كانت مريضة؟».

«كلا فالدكتور كلاين كان هنا عندئذ وهو الذي عالجها. وهو حضر ولادتها».

ضرب كونراد بيده ضرباً خفيفاً على زجاج السيارة.

«لماذا؟».

«كنت فضولية. هذا كل ما في الأمر».

عضت فكتوريا على شفتيها، كان من الصعب ادخال البارونة في حديثها طبعاً كان كونراد كغيره من الناس ينفر من الحديث عن غيابها.

«اذن صوفي ولدت في القصر؟».

«هذا صحيح».

فكرت ان كونراد كان ينظر اليها بحذر.

«هل كنت تقيم في ريشتين في ذلك الوقت؟».

«اتخيل انني كنت بعيداً عنها في الجامعة. قبل عشر سنوات كنت في التاسعة عشر من عمري».

اطلقت فكتوريا ايماءة خفيفة وعضت على شفتيها وقالت:

«طبعاً انك تعتقد انني فضولية محبة للبحث والتحقيق».

تجهّم وجه كونراد وقال:

«اعتقد انك تحاولين البحث حول السا. اليس كذلك؟».

تورّدت وجنتا فكتوريا وقالت:

«السا؟ اهي والدة صوفي؟».

«لماذا؟».

امعنت فكتوريا النظر في سؤاله وقالت بحذر:

«انني احاول فقط ان اجمع الاشياء مع بعضها. اعتقد ان حالة صوفي مردها بطريقة ما الى غياب والدتها...».

القى كونراد بعقب لفافة التبغ خارج النافذة وسألها بجفاء:

«هل تعرفين شيئاً يا آنسة؟ اعتقد انه يجب عليك ان تكوني عادلة».

ادخل مفاتيح السيارة في المشعلة فتحركت السيارة. القت عليه فكتوريا نظرة عجلى وقالت:

«هل سنعود؟».

«نعم اعتقد ذلك».

«هل انت غاضب مني؟».

«لست غاضباً منك مطلقاً ومع ذلك فهذا الحديث جرّنا بعيداً وبينما اريد مساعدتك اشعر بأنني لا استطيع ان اخون الاسرار بلا مبالاة».

«ماذا تعني؟».

«اليس بمقدوري يا فكتوريا ان احدثك عن السا. هورست سيحدثك عنها بدون ريب في الوقت الذي يراه مناسباً».

شعرت فكتوريا بنفاد صبرها.

«هل تجد انني لا اؤتمن على اسرار؟».

وضع كونراد يده فوق احدى يديها:

«لو كان هذا الامر يتعلق بي يا فكتوريا لما ترددت بالشاله لك ولكن حاولي ان تفهمي موقفي».

تصنعت فكتوريا ابتسامة باهتة وقالت:

«انا آسفة يا كونراد».

تلألأت عيناه وقال برقة:

«كنت غبطاً عندما قلت ان الحديث جرنا بعيداً».

«هل تناديني باسمي واناديك باسمك دون اية القاب. هذا جيد، اليس كذلك؟».

اطلقت فكتوريا ضحكة خافتة ناعمة واجابت:

«كما تريد يا كونراد».

ونزعت عنها جميع الافكار المتعلقة بالسا فون ريشستين.

عندما وصلا الى القصر كان الظلام قد ارخى سدوله. فزعت فكتوريا عندما علمت ان الساعة قاربت السادسة.

قال كونراد معلقاً منشرح الصدر:

«الوقت يمرّ بسرعة عندما يستمتع المرء به. سنقوم بنزهة اخرى وفي المرة المقبلة سنتكلم عن نفسينا. لم تذكري لي شيئاً عن حياتك في لندن واريد ان اعلم كل شيء عنك».

نزلت فكتوريا من السيارة:

«لا اعتقد ان علينا تحديد ترتيبات حتى اعرف متى اكون حرة».

ثم سايرته قائلة:

«انك مرتبط بموعد مع البارون هنا خلال الايام القليلة المقبلة. وربما امكننا عندئذ ترتيب شيء ما».

قبل كونراد اعتذارها اللطيف وقال:

«حسناً جداً يا فكتوريا ولكنك توافقين اننا سنقوم بمثل هذه الرحلة مرة اخرى؟».

سمحت له فكتوريا بأن يأخذ يدها وافقت بلطف قائلة:

«وانا آمل كذلك».

واذا بحزمة اشعة تضيء الساحة.

كانت الابواب الواسعة لقاعة الجلوس الكبرى مفتوحة ويمكن رؤية

ظلالها بوضوح من عتبتها. رأت فكتوريا البارون واقفاً بالقرب من الباب وكلبا الصيد على مقربة منه وبدأت ترتجف. صاح كونراد وعلائم السرور بادية عليه:

«مرحباً يا صديقي هورست. هل قلقت علينا؟».

لم يتحرّك البارون وقال بكآبة:

«لقد تأخرتما».

قال كونراد بلا مبالاة:

«ذهبنا واستمتعنا برحلة حتى كلوكتيرج. كنت اعلّم فكتوريا التزلج».

قطب البارون جبينه وقال بنبرات باردة:

«كلو كتيرج خطيرة. هنالك اشجار كثيرة!...».

لوى كونراد قسمات وجهه لاضحاكه وقال:

«استطيع ان اتولى رعاية نفسي اما فيما يتعلق بفكتوريا فلم تتسلق صخوراً عالية. لذلك فلا مجال للخطر».

سحبت فكتوريا يدها من كونراد وقالت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة:

«عليّ ان ادخل الى غرفتي شكراً لك يا كونراد لانك اصطحبتني في هذه الرياضة».

راقبها كونراد عبر الساحة ثم قال:

«لا استطيع المكوث. وعدت والدتي بأن اعود الى المنزل لتناول طعام العشاء».

فكرت فكتوريا بأن رب عملها لم يطلب من كونراد المكوث فقد اغتنم مناسبة العشاء مع والدته ليهرب.

وما ان وصلت فكتوريا الى قاعة الجلوس الدافئة قام البارون بخطى واسعة امامها يرافقه كلباه وكانت تعتقد انه سيكلمها عن الطبيب الشاب. ترددت فكتوريا ولكن البارون لم يفاتحها بأي شيء بل رمقها بنظرة عجل وانتابتها وخزة من الفزع فاستدارت ومشت الى غرفتها.

بدلت في غرفتها ثيابها بملابس متراخية مخملية زمردية اللون ومكنزة صوفية مطرزة سوداء ونزلت الى الدور السفلي.

سمعت رحيل السيارة عندما كانت تغتسل وراودها الامل بأن البارون لم

ير ضرورة لاستجواب كونراد لأنه اخذها معه الى كلوكتيرج.

في المطبخ كانت صوفي جاثمة فوق مقعد خشبي طويل بشيع الدم في وجهها. كانت جذابة على ان الثوب الذي كانت ترتديه والملتصق بجسمها افسد مظهرها الخارجي.

فكرت فكتوريا بحزم انها ستفاتح البارون في مسألة ثياب صوفي. حتى الآن لم تناقش هذه المسألة مع تلك الابنة وربما الثقة التي كانت تبنيها معها ببطء تكون كافية لتقنع صوفي بأن فكتوريا لا ترغب الاّ في مساعدتها.

قالت وهي تسير بالقرب من المدفأة:

«مرحباً يا صوفي هل استمتعت بنزهتك؟».

حدقت فيها صوفي بنظرة تتسم باللامبالاة وقالت:

«نعم شكراً يا آنسة».

«حسناً. لقد استمتعنا بالهواء الطلق واستفدنا من ذلك صحياً. خداك يتوردان بالصحة».

احنت صوفي رأسها:

«هل خرجت مع الدكتور زيمرمن؟».

«هذا صحيح اخذني معه للتزلج».

تفحصت صوفي اظافرها وقالت ملمحة:

«ابي كان غاضباً. لم يأذن لك بمغادرة القصر».

اطلقت فكتوريا تنهدة:

«انا لست سجينة يا صوفي. لست ملزمة بأخذ اذن مرور كلما اردت الذهاب والمجيء».

ثم القت نظرة حادة الى ماريا واردفت تقول:

«اليس كذلك؟».

«بحق السماء ما هذا!».

كانت اعصاب فكتوريا ثائرة بعد امتناع البارون عن الترحيب بمقدم الدكتور زيمرمن والآن بموقفه منها.

«قلت لي انه لا مانع مطلقاً من ذهابي مع الدكتور زيمرمن لا بل شجعتني على الذهاب معه».

«انني لا انكر هذا الامر يا آنسة».

«في كلّ حال لقد قضي الامر وما فات فات. ما هو طعام العشاء؟».

رفعت صوفي بصرها الى فكتوريا:

«انت تفزعين من ابي. اليس كذلك؟».

حملقت فكتوريا بها غاضبة:

«لا تكوني سخيفة! طبعاً لا افزع منه!».

تكلفت صوفي الابتسام:

«حسناً لماذا اذن تضطربين؟ حدث ذلك عندما قلت لك بأن والدي لم يكن مرتاحاً لخروجك مع الدكتور».

«لا احب ان اعامل كطفلة يا صوفي، اذا اخترت الخروج فسأخرج. هل هذا مفهوم؟».

«تماماً يا آنسة».

اجاب صوت عميق بارد عرفته فكتوريا فوراً.

«ومع ذلك اتردد بتذكيرك بأنك بصعوبة حرّة!».

استدارت فكتوريا متكدرة لأن ماريا وصوفي تراقبانها وفكرت بغضب انهما يستمتعان بذلك. اجابت بنفس اللهجة الباردة:

«كنت خارج القصر طوال اليوم فرأيت ان لا ضرر من مرافقة الدكتور زيمرمن الى...».

اجاب البارون متمماً كلامها باقتضاب:

«الى كلوكيترج».

اطبقت فكتوريا قبضتها.

«كنت اتوقع ان اعود قبل عودتك مع صوفي. ماريا تعرف الى اين ذهبت».

رفع البارون حاجبيه الداكنين وتساءل بنبرات جامدة.

«هل تعرفين الدكتور زيمرمن معرفة كافية لتقضي ساعات طويلة وحدك برفقته؟».

اطلقت فكتوريا تنهدة خفيفة:

«لا اعرف ماذا تعني بذلك؟».

«لا تعرفين شيئاً عن الدكتور زيمرمن. هو احد معارفك وليس اكثر من ذلك. لتقييم ما اذا كان جديراً بالثقة يجب ان يكون مزوداً بتجارب وثقافة

بروية سابقة كافية».

حدقت فيه فكتوريا وقالت:

«آه، حقاً! اننا لسنا في القرون الوسطى! هل تتوقع مني ان اعتقد انك كنت قلقاً من جهة سلوكي الاخلاقي».

وهنت شفتا البارون:

«هل انت تعارضينني يا آنسة؟».

«كونراد زيمرمن هو صديقكم وهو ايضاً طبيب. هل تتوقع مني ان اعتقد ان رجلاً في مثل مركزه يخاطر بهدم سمعته باغراء احد مستخدميك؟».

«حسناً، حسناً اقبل ان الدكتور زيمرمن هو شاب جدير بالثقة ولكن هذا لا يعتبر انه جدير بتحمل المسؤولية بصورة كاملة. لقد وقعت له حوادث فيما مضى في كلوكيشرج. فقد كسر عظم رقبته هناك. هل حدثك عن هذا الامر؟».

تجهم وجه فكتوريا وقالت:

«كلا ولكن لم يكن هنالك اي خطر في هذا اليوم لم نتسلق القمم العالية».

رد البارون بحدة قائلاً:

«لا تستطيعين الجزم بذلك. في اي حال امنعك من الذهاب مرة اخرى للتزلج مع هذا الشاب».

«اتمنعني؟».

«هذا صحيح يا آنسة طالما انك مستخدمة عندي فيجب ان تطيعي اوامري».

هذا ما أثار سخط فكتوريا. فردت عليه بسرعة قائلة:

«لا يمكنك مراقبة جميع حركاتي يا سيدي البارون. في وقت فراغي سأعمل حسبما اشاء».

تألقت عينا البارون وقال:

«لا اريد ان اعامل بهذا الاسلوب يا آنسة. اذا احببت ذلك ام لم تحبيه عليك ان تعملي وفقاً لتوجيهاتي».

رفعت فكتوريا رأسها:

«واذا رفضت؟ ما هو مصيري؟».

ومشت برفق اثناء سيرها ماريا ومشت متوترة الاعصاب باتجاه الباب. وقبل ان تغادر الغرفة استدارت ونظرت الى البارون باستخفاف وسخرية مهينة:

«افترض انني اذا لم اطعك سأجد نفسي سجينة في البرج الشمالي!».

وبعد هذا غادرت الغرفة قبل ان يتمكن احد من ايقافها.

لم تدرك قباحة ما فعلته الا بعد ان اخلدت الى غرفتها.

هزأت بالبارون امام صوفي وماريا وظهرت بالاضافة الى ذلك بمظهر الحمقاء امامهم. لماذا اذلت غطرسته؟

كان يعرف انه لا يستطيع منعها من الذهاب مع كونراد اذا رغبت ذلك. لقد اوقعت نفسها في مأزق حرج لا تعرف كيف ستخرج منه.

٨- ضياع ولقاء

لم تنزل فكتوريا لتناول طعام العشاء. من الجبن ان تتصرف هكذا ولكنها لم تكن تجرؤ على مواجهة ماريا بعد نزاعها مع البارون. ومنذ الآن ستجعل غوستاف يتمتع بهذه القضية. وبينما لا يمكنها قول اي شيء سيكون هناك بين الحين والآخر تبادل نظرات سريعة وستعرف فكتوريا ما يدور في خلدهم.

في السابعة والنصف علمت ان عليها الذهاب لرؤية رب عملها.

كان البارون متكئاً على أريكة وراء منضدة. حيث كانت بقايا وجبة طعامه وطعام صوفي. وكانت صوفي تتحرك على سجادة مقابل المدفأة وتلقي نظرة عجلى على مجلة. نهض البارون عند دخول فكتوريا مقطباً حاجبيه:

«نعم يا آنسة!».

كان صوته عديم العاطفة. رفعت صوفي بصرها الى مربيتها ونظرت اليها بتحدٍ. عرفت فكتوريا ان البارون سيزداد تصلباً على اعتبار انه أمام ابنته. ربما خطر في باله ان يدعو ماريا وغوستاف ايضا لأن صوفي ستجد متعة كبيرة في التحدث عن جميع هذه الأمور امامهم. تأكدت الآن ان البارون كان ينظر اليها بنفاد صبر وبعد ان بللت شفتيها الجافتين اسرعت بالكلام:

«أردت ان اكلمك. اعني أردت ان أناقش معك ما حدث قبل حين».

أحنى البارون رأسه وقال:

«نعم يا آنسة».

عضت فكتوريا على شفتها واخذت نفساً عميقاً. استدار رب عملها وألقى نظرة عجلى على ابنته وقال لها:

«صوفي أظن ان الآنسة مونرو تجد انه أيسر لها ان تكلمني بغيابك».

رفعت صوفي بصرها الى والدها بعينين ساخطتين وهتفت:

«لكن يا أبي أنا لست مصغية الى الآنسة مونرو اني اقرأ».

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي البارون فتمتم بنعومة:

«أجد ان من الصعب تصديق ذلك. والآن أخرجي بسرعة كابنة مطيعة».

سارت صوفي مضطربة القلب وألقت على فكتوريا نظرة سريعة غاضبة وقالت بجفاء:

«آمل انها جاءت تقول انها ستغادر القصر».

تجهّم وجه البارون وردّ بصورة حادة مقتضبة:

«عليك ان تعتذري عن هذه الملاحظة».

«آه. حسناً، انا آسفة».

على ان نبرات صوتها لم تكن لتخدع فكتوريا او البارون.

دوى صوت البارون كالرعد وقال لها بعنف:

«اذهبي حالاً الى غرفتك».

وبنظرة مفزعة من والدها خرجت صوفي من مكتبه.

كالمعتاد عندما ذهبت صوفي شعرت فكتوريا في نفسها كما لو انها هي سبب سوء سلوكها وهذا ما أضعف موقفها الدفاعي ازاء البارون. أغلق البارون الباب على ابنته وقال:

«والآن نحن هنا بمفردنا. ما هو الأمر الذي دعاك للمجيء الي؟ هل كانت صوفي حسنة السلوك؟ هل جئت لتقولي لي بأنك مزمعة على الرحيل؟».

أسند ظهره الى الباب وطوى ذراعيه. لوت فكتوريا يديها وراء ظهرها. فكرت انه كان متأكداً من انها لن تعيد الكرة بالخروج من القصر رغماً عنه. لقد وقعت مؤقتاً في الشرك. أجابت:

«كلا. جئت لأعتذر».

بدت على البارون بعض علامات الشك وقال:

«نعم يا آنسة».

تحركت فكتوريا بدون ارتياح تحت تأثير نظراته المحرقة المستمرة.

«كان يجب علي ألا اتفوّه بالكلام الذي قلته. لساني فر مني دون ان أعي ما أقوله».

نظر البارون اليها مقيّماً أقوالها ثم نهض وابتعد عن الباب وقال:
«انني أدرك حقيقة الأمر».

كانت فكتوريا تنتظر بعدم ارتياح حتى يأذن لها بالانصراف. كان مما يثير الأعصاب ان تقف منتظرة رد أفعاله. اخذ البارون سيكاراً من علبة موضوعة فوق المنضدة وأشعله وهو مستغرق في التفكير ثم مشى بضع خطوات في الغرفة وأسند ظهره الى المدفأة. كان يبدو كئيباً بصورة غريبة. لم يكن بوسع فكتوريا ان تنتظر أكثر من ذلك. فطالبته بوجهة نظره بالحاح قائلة:

«هل عذري مقبول؟».

نزع البارون سيكاره من فمه ورمى بالرماد في النار وتساءل وعيناه اللامعتان مصوبتان اليها:

«هل أفهم من ذلك انك مستعدة للرجوع عن كل ما قلته؟».

«كلا ليس كلياً».

«كلا».

«انك تجعل الأمور على درجة كبيرة من الصعوبة».

«هل أنا كذلك؟».

أطبقت فكتوريا قبضتها وتساءلت: انه شخص يصعب التعامل معه. فهو يعقد الأمور بشكل لا يمكنني فهمها. قالت:

«بكل صدق لا استطيع ان اخضع تماماً لجميع شروطك في الاستخدام».

كانت قسمات وجه البارون منقبضة:

«لاحظت ذلك!».

«لا يمكنني ان أقوم بخطوة الى الأمام مع صوفي الا بمحض ارادتي يا سيدي البارون».

«هل تقصدين بهذا الضمير رفضك قبول أية سلطة يا آنسة؟».

«طبعاً، كلا، انني اقبل السلطة انما اشعر ان ما اعمله هو من شأني الخاص».

«طالما انت مقيمة في ريشستين فانك تحت مسؤوليتي وعزّابتك لا تقبل مطلقاً ان يحدث لك شيء ما».

«طبعاً لا».

«ربما اذن تقبلين ان أعرف ما هو الأفضل لك».

اندفع بقوة وهو يدخن سيكاره قائلاً:

«تكمن أخطار لا يمكن التنبؤ بها في هذه الجبال. صدقيني انني أعرف الدكتور زيمرمن حق المعرفة فهو ليس بالمرافق المناسب. انني أوافق على القول بأنه شاب فاتن وبدون ريب أشبع غرورك باطراء محاسنك بمجاملاته ولكنه لا يكترث بالأخطار».

قطبت فكتوريا شفتيها وقالت:

«لم أشبع غروري بمجاملاته!».

«لا».

تضيقت فتحتا عيني البارون واستطرد قائلاً:

«ولم لا؟».

أطلقت فكتوريا تنهيدة.

«الدكتور زيمرمن ليس الرجل الجذاب الأول الذي عرفته في حياتي يا سيدي البارون. أنا لست تلميذة مدرسة انني اعرف رجالاً آخرين. . . .».

نظر اليها البارون متشاغلاً بعض الشيء وقال:

«آه. انني اصدقك يا آنسة!».

كانت الطريقة التي تفوّه بها بدت وكأنها اهانة. اخذت فكتوريا نفساً عميقاً. اجابت وامارات الغضب بادية عليها:

«ليس لك الحق بأن تحقق معي بهذه الطريقة الصارمة. اذا كنت تقصد بذلك ان تتخلى عن خدماتي التي لا تتسم بالمسؤولية فأرجوك ان تقطعها!».

مشى البارون خطوة باتجاهها مطلقاً يده وقال بنبرات يشوبها التوتر:

«انك دائماً هكذا مستعدة للهجوم! ربما من المفيد ان تعلمي انني لا أرغب في التخلي عن خدماتك. ومن جهة ثانية ربما تضطرينني لأن أعمل ذلك».

«لماذا».

ألقى البارون سيكاره في النار وأسند ذراعه الى اطار الموقد وراقبه لحظة يحترق ويلتهمه اللهب في ثوان معدودات. ثم استدار ونظر اليها مستغرقاً

في التفكير وقال لها:

«هذا الرجل الذي تعرفينه في لندن لماذا هربت منه؟».

شعرت فكتوريا بأن الدم الحار ينساب من حنجرتها الى وجهها فردّت عليه بهزء وانفعال:

«هل هذا ايضاً يقع ضمن شروط استخدامي؟».

اقترب منها البارون مصوباً اليها نظرات باردة الى حد بعيد كسلاح فولاذي. كان يحدّق في بنطالها المخملي المتراخي، وقال لها بلهجة آمرة:

«هل هذا هو الموضوع الذي يزلك. هل من الممكن ان تكوني قد اخفيت قلباً عطفاً يا آنسة مونرو؟».

قالت فكتوريا وقد تصلّب ظهرها وهي تشعر بقلق لأن الوضع اصبح فجاة خطيراً جداً.

«لا تهزأ بي يا سيدي البارون».

«لم اكن هازئاً يا آنسة. قلت لك في المرة السابقة بانك تثيرينني».

تمتمت وهي تحاول ان تجلب الى الحديث معنى طبيعياً:

«ان حياتي قبل مجيئي الى ريشستين لا يمكن ان تهمك ولكن حدث ان عرفت رجلا في لندن. ولكن لسوء الحظ كان متزوجاً».

تضيقت فتحتا عيني البارون وقال:

«وما الذي جعلك تقررين فجاة بعدم التورط مع رجل متزوج؟».

«لم أكن أعرف بأنه كان متزوجاً. حتى قبيل مغادرتي لندن. والآن هل هذا كل شيء يا سيدي البارون؟ ارجوك ان تقول لي اذا كان عليّ ان اذهب واغلق حقائبي؟».

تجهّم وجه البارون وقال:

«هل ترغبين بالرحيل؟».

«انت تعلم انني لا أريد الرحيل».

«ربما كنت تريدين ذلك يا آنسة؟».

«لماذا؟».

القى عليها نظرة عجلى وقال بنبرات جافة باردة:

«اذهبي يا آنسة. أخذت علماً باعتذارك».

«مساء الخير يا سيدي البارون».

في الصباح التالي جاء البارون الى مكتبه بينما كانت صوفي منهمكة بدروسها. كانت هذه المرة الاولى التي يقطع فيها عليها الدرس. رفعت فكتوريا بصرها اليه بحذر متسائلة لماذا اختار هذا الوقت بالذات للمجيء الى مكتبه. وجدت فكتوريا صعوبة اكثر من المعتاد في اثارة اهتمام صوفي بالدرس وعندما نجحت بانشغالها في عمل جدي دخل رب عملها الغرفة.

رفعت صوفي بصرها الى والدها بسرور عظيم وابتسمت له وسألته:

«هل جئت يا أبي لتأخذني الى خارج القصر مرة أخرى؟».

«كلا ليس الآن أتساءل اذا كنت تستطيعين بعد الظهر ان تستمتعي أنت ومربيتك برحلة الى هوفنستين. فكرت ان بامكانكما ركوب قطار بعد الظهر. يمكن ان تتناولا طعام الغداء في هوفنستين نفسها».

كانت فكتوريا تلوي قلمها بين اصابعها عندما اومأت صوفي برأسها مؤيدة هذه الفكرة وقالت:

«آه. نعم يا ابي! لا تمانعين يا آنسة مونرو أليس كذلك؟».

كانت المرة الأولى التي تحاول فيها صوفي ان تطلب الاذن من مربيتها؟ قدرت فكتوريا هذه البادرة منها حق قدرها حتى ولو كانت مستوحاة من وجود والدها. على ان فكتوريا كانت أقل حماساً. أجابت ملطفة رفضها بابتسامة:

«طبعاً صوفي تستطيع الذهاب لكن اذا سمحت سابقى في القصر».

لم يتخلّ البارون عن فكرته وأصرّ بعينين كئيبتين قائلاً:

«لا اسمح بعدم مجيئك معنا. فالرحلة درس مفيد لصوفي. في هوفنستين متحف رائع يحتوي على روائع فنية وثقافية بيزنطية».

«اني متأكدة ان صوفي ستحب الرحلة معك، ومعرفتك بمثل هذه الأمور اكبر كثيراً من معرفتي بها يا سيدي البارون».

طوى البارون ذراعيه وسألها بغضب:

«وما هو العذر المتيسر لديك للبقاء هنا في ريشستين؟ بينما أعرض عليك فرصة لمشاهدة بعض المناظر الجميلة في بلادي؟ الا اذا كنت قد اتفقت مع صديقك الطبيب على تعيين لقاء آخر».

انتصبت فكتوريا واقفة وقالت:

«لم اتفق على تعيين مواعيد يا سيدي البارون».

ثم تشبثت بطرف المنضدة باحكام واضافت:

«أعتقد فقط ان مرافقتي لكما لن تساعد على الوصول الى أي هدف مفيد!».

ردّ بحدة وخشونة:

«وماذا لو أصررت على القيام بها؟».

كانت صوفي تحدق فيها بفضول. وتشعر بأن هناك اكثر من مسألة الرحلة الى هوفنستين. أمسكت بأكمام والدها وقالت:

«اذا كانت الآنسة مونرو ترغب في البقاء هنا فلا مانع لدي يا أبي».

نظر البارون اليها بعينين مبهمتين وقال:

«حسناً جداً ستذهب وحدنا!».

«آه. شكراً يا أبي».

هز البارون رأسه والقى نظرة عجلى فاترة على فكتوريا وقال بهدوء:

«لا تشكريني».

ثم خرج دون ان يكلم فكتوريا. بعد ذهاب البارون عادت فكتوريا وجلست وقالت بنبرة حادة:

«بما انك ستخرجين بعد الظهر، الأفضل ان نعمل في الصباح يا صوفي».

أومأت برأسها علامة الموافقة وهي تضرب قلمها بأسنانها ضرباً خفيفاً.

«انك يا آنسة لا تحبين ابي. هل تحبينه؟».

توردت وجنتا فكتوريا خجلا فصرخت رافضة هذا القول:

«أنا لا أحبه ولا أكرهه».

«ان المربيتين الأخريين كانتا تحبانه».

«نعم ربما كانتا كذلك».

«انك لا تحبينني أنا ايضا. هل تحبينني؟».

«طبعاً احبك يا صوفي. على الأقل قد أحبك اذا توقفت عن السلوك كالبطلة في احدى الروايات المفرطة!».

«ماذا يعني ذلك؟».

«آه. لا شيء. انك لا تحبينني. لهذا لا تتوقعي مني ان أبتهج بك الى أقصى حد».

«أحياناً أجدك مسلية».

«صحيح هذا؟».

«نعم كما وقفت أمام ابي مثلا في الليلة الماضية».

«الليلة الماضية كانت مشؤومة».

«لماذا؟ لأنك تشاجرت مع أبي؟».

«هذا صحيح على الرغم من ذلك سأذهب وسأعود كما اشاء. لذلك لا تظني اعتذاري معناه الخضوع لجميع أوامر والدك».

«لم أر والدي قط غاضباً بالدرجة التي أوصلت غضبه اليها؟».

«هل نبدأ العمل؟».

«أعتقد ذلك».

وراحت تستمع الى دروس مربيتها لفترة ثم نظرت اليها وقالت:

«ان الدروس ليست سيئة تماماً أليس كذلك؟».

«كلا».

«هل كنت تحبين المدرسة؟».

«شخصياً كلا».

«الا تحبينها؟ حسناً فكّرت انك ستقولين بانك كنت تحبينها؟».

«لماذا عليّ ان أقول كذلك؟».

«الناس يقولون دائماً انهم كانوا يحبون المدرسة. أعني البالغين».

ارتسمت ابتسامة على شفتي فكتوريا:

«قلت لك انني لم أكن احبها، انني لا أكذب».

اعادت صوفي نظرها في كتابها المدرسي.

«اذا كنت مزمعة على البقاء هنا فكم ستبقين؟».

رفعت فكتوريا حاجبيها.

«حتى تصبحين قادرة على متابعة دراستك في مدرسة خاصة».

«مدرسة داخلية».

«أعتقد ذلك. انها عادة جيدة جداً. وأنا كنت في واحدة منها».

«هل كان والداك يأتيان لزيارتك؟».

«مات والداي عندما كنت صغيرة جداً. عمّاتي ربتني».

«أليس عندك اب وأم؟».

«كلا».

كانت فكتوريا حذرة.

«لماذا؟».

«آه. لا شيء».

مضغت صوفي طرف قلمها:

«حدثيني عن مدرستك».

«مرة أخرى؟».

تابعت فكتوريا كلامها بنبرات رقيقة.

«قولي لي يا صوفي. هل رغبت يوماً ما بارتداء ملابس جميلة؟».

«ماريا تحيك لي ثيابي والكنزات من الصوف المحبوك».

«أعرف ذلك. ولكن اذا رغبت يوماً بأن تحصلي على بعض التنانير والبلوزات وربما بعض السراويل».

أخذت صوفي نفساً وقالت:

«ماريا لا تستطيع ان تخيط سراويل».

«أعرف

لكنني استطيع ان اخيط لك بعضاً منها».

«أنت؟».

«أجل عندي بعض الأقمشة».

«هل بالفعل ستخيطينها لي؟».

اهتمت صوفي بالموضوع رغماً عنها حسب ظن فكتوريا.

«لماذا تريدين ان تخيطي لي ثياباً؟».

«لأنني أريد ان أجعلك تبدين اكثر جاذبية، الربيع قادم ولا يمكنك ارتداء ملابس محبوكة الى الأبد».

«وعندي بعض الملابس القطنية».

تخيلت فكتوريا ما عسى ان تكون تلك الملابس القطنية. وقالت بلا مبالاة:

«حسناً جداً اذا كان هذا كل ما تريدينه».

«لم أقل ذلك».

«صحيح».

«هل بامكاني رؤية الأقمشة؟».

أومأت فكتوريا برأسها علامة الموافقة وهي تشعر بالانشراح التام.

«اذا رغبت بذلك ولكن ليس الآن. بعد الظهر ستذهبين مع والدك، ربما غداً».

«حسناً جداً».

هزت صوفي رأسها علامة الموافقة وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها وأحنت كتفيها النحيلتين على كتابها.

أطلقت فكتوريا تنهيدة ارتياح وفكرت ان صوفي ستنكبُ على الدراسة رويداً رويداً. ما ان أزفت الساعة الحادية عشرة حتى خرج البارون مع ابنته في الرحلة التي اعدها. لم تكن فكتوريا متذمرة اذ عملت معها زهاء ساعتين قبل رحيلها.

طالما ان الشمس كانت لا تزال ترسل خيوطها المتلألئة، صممت على القيام بنزهة. جازفت بدخول المطبخ بحثاً عن غوستاف ولم تشاهد الا ماريا التي كانت تحيك. سألتها برفق:

«هل من المستحسن ان آخذ معي فريتز في نزهة؟».

رفعت ماريا بصرها اليها وقد استولت عليها الحيرة. وأجابت:

«لا أعلم يا آنسة. ان كلبي الصيد هما من شأن البارون».

ضغطت فكتوريا على شفتيها وتمتمت:

«لا بأس. أين غوستاف؟ ربما يأذن لي بأخذه؟».

«سوف لن اتأخر.

اذا كنت ترغبين بأن تصحبي الكلبين لا نستطيع ان نمنعك».

تقبلت فكتوريا هذا الكلام كتذكير بأن ماريا كانت حاضرة في المساء الفائت عندما تشاجرت مع البارون. طبعاً لم تكن ترغب بالتورط معها مرة أخرى او ان تورط فكتوريا او غوستاف. قالت فكتوريا:

«حسناً جداً. سأذهب لارتداء معطفي».

عادت ماريا الى حبكها. خرجت فكتوريا وعلائم نفاد الصبر بادية على محياها. انتعلت في غرفتها حذاءها الداقئ، العالي الساق وارتدت معطفها وبلوزتها الغليظة. ابدلت بنطالها بسروال التزلج الذي احضرته معها. كان الكلبان في موقعهما المعتاد قرب المدفأة. عندما صفرت فكتوريا منادية فريتز

أقبلت هيلكا ايضا.

استكان اليها الكلبان في دعة مرحبين بها ولم يكن بمقدورها ان تأخذ واحداً منهما دون الآخر قالت لهما وهي تبتسم:

«حسناً تذهبان معي كلاكما. هل ترغبان بنزهة؟».

هز الكلبان ذنبيهما كأنهما فهما كلامها. مشت فكتوريا بسرعة عبر غرفة الجلوس الى الباب الرئيسي الضخم. كان الهواء في الخارج بارداً جداً، والكلبان ينبحان قربها رهن اشارتها. شعرت بما لها من أهمية طالما انها مرافقة بحراسة.

لم يظهر أثر لغوستاف ولكن كما قالت ماريا كان عليها ان تقرر بنفسها ماذا يجب ان تعمل وطالما ان البارون منع مرافقة الكلبين بدون اذنه. ساورتها الشكوك. طبعاً كان يبدو على فريتز انه يخصها نوعاً ما واذا كانت هيلكا تثب امامها فلم تكن تبتعد عنها كثيراً. سارا في الطريق التي سارت بها مع كونراد في اليوم السابق بالسيارة.

كانت الريح تهب في الجبال الا ان ضوء الشمس كان يشيع في جميع الأرجاء. السماء صافية لا تنبىء بسقوط الثلج. وعندما تسلقا الجبال صعداً بصورة اكثر دقة. لاحظت التفاصيل عن اليوم السابق. كان لديها متسع من الوقت لأن تتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة. وكانت تجثم فوق الأبراج قمم جبال الألب الشامخة. بينما في المنحدرات المنخفضة كان لون الثلج الأبيض المتلألىء يتضاءل بفعل ألوان أوراق الصنوبر الداكن. ومن وقت لآخر كان الكلبان يشعران بوجود حيوان مفترس فاذا بهيلكا تقفز مندفعة بعيداً وتنبح باهتياج ثم تعود مغطاة بالثلج الذي كان يبعثره حول فكتوريا عند اهتزازه.

ضحكت فكتوريا لسلوكهما الغريب وشجعتهما عندما رجعا يجران غنائم متنوعة نثراها تحت رجليها. جلبا لها الماليد وأغصاناً صغيرة فأخذتها فكتوريا وقذفتها عالياً فما كان من كلبي الصيد الا ان تسابقا لاعادتها.

والآن تسلقا المنحدرات حيث تزلجت مع كونراد ظهر اليوم السابق وشاهدت فكتوريا مذهولة ان القصر كان بعيداً على الجهة الأخرى من الوادي.

لفتت فكتوريا انتباه الكلبين بصفيرها الحاد فوثب فريتز عائداً اليها. اما

هيلكا فظلت واقفة على بعد قليل من الطريق وبدت غير مكترثة بأوامر فكتوريا. تنهدت فكتوريا وصاحت بنفاد صبر:

«تعالي الى هنا حالاً، تعالي ايتها الكلبة الطيبة».

نبحت هيلكا وهزت ذنبها بشدة مستعدة للتفتيش عن الغصن الذي كان بيد فكتوريا. ألقت فكتوريا بالغصنين بين رجليها ولكن هيلكا نبحت مرة أخرى وتمددت مغمومة على الثلج. صرخت فكتوريا بصوت عال:

«هيا اسرعي هيلكا! تعالي ورائنا!».

بقيت هيلكا جالسة. أطلقت فكتوريا تنهيدة ونظرت الى فريتز الذي كان واقفاً قربها وقالت مكيفة نفسها على هذه الحال الجديدة من غير تذمر:

«حسناً يا فريتز ما عسانا نفعل؟ أنذهب بدونها؟» هز فريتز ذنبه ولكن عندما بدأت فكتوريا بالسير قدماً على الطريق بعيداً عنه بدأ يئن متنحيا والشكوك تساوره. توقفت فكتوريا وقالت له:

«تعال يا فريتز. لا يمكننا البقاء هنا».

تردد فريتز ثم بدأ يعدو وراءها مطيعاً. وبعد ان سارا بضع مئات من الأقدام توقف مرة اخرى ونظرت بحزن الى الطريق. طبعاً لم يكن يرغب بترك الكلبة وراءه. توقفت بعدئذ فكتوريا وزررت معطفها باحكام. كان الجو بارداً ويشتد برودة. لحسن الحظ نزل البارون الى هوفنستين وسوف لا يعود باكراً. لم تكن ترغب في الاصطدام بغضبه مرة اخرى.

ألقت نظرة أخرى على مكان جلوس هيلكا وصفرت لها ولكن هيلكا رفضت ان تطيع اشارتها. احست فكتوريا انه من جهة لا يمكنه العيش بدونها. لكن لم يكن لديها الوقت الكافي لتعود الى هيلكا وتقنعها بالمجيء معها. كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله في تلك الأرجاء ولم تكن النظرة العجلى الى ساعتها مشجعة. لكنها لا تستطيع الذهاب بدونها. كان الكلبان عائدين للبارون ولا يمكنه ان يفهم لماذا عصت اوامره وخرجت معهما.

كانت على بعد بضع أميال من القصر، فاذا أسرعت بالرجوع تطلب من غوستاف مرافقتها للتفتيش عن هيلكا واعادتها الى المنزل فقد تختفي بسهولة في ركام الثلوج. قالت بكآبة:

«آه يا فريتز ما عساي أفعل؟».

استنشم فريتز يدها بتودد ثم بدأ يعود بضع ياردات الى الوراء متوقفاً ومنتظراً منها ان ترافقه. تجهّم وجه فكتوريا. قالت مستسلمة:

«حسناً جداً كنت مزمعة على الذهاب اليها».

هزت هيلكا ذنبها بقوة عندما رأتهما عائدين اليها. ولحسن الحظ كان الثلج يشكل ضوءاً كافياً لرؤيتها في ذلك الظلام الدامس. بدأت فكتوريا تصفر مشجعة آملة ان الكلبة ستأتي اليها حاملة في فمها قطعة من الخشب تمكنها من الامساك بالطرف الثقيل الذي كانت تحمله ولكن بدا على هيلكا انها لم تكن ترغب بترك موقفها واضطرت فكتوريا ان تمشي عبر سطح المنحدر المغطى بالثلوج الكثيفة للوصول اليها. وما ان وصلت محاولة الامساك بها حتى ابتعدت عنها مما جعل اسنانها تصر من الحنق. هذا ما كان يعنيه البارون بالشيء غير المتوقع! تخيلت أنه انه كان يعني شيئاً مختلفاً كل الاختلاف وحاولت ان تقنعها بالمجيء فصاحت:

«تعالي يا هيلكا. انظري».

اخرجت من جيبها ورقاً رقيقاً لوحت به لتجذبها وقالت:

«تعالي وانظري ما جئتك به؟».

نبحت هيلكا ومالت الى الامام وهي تشم بارتياب. تبسمت فكتوريا وشجعتها على المجيء قائلة:

«تعالي وانظري ما هذا؟».

مشت هيلكا خطوة باتجاهها وهي حتماً مهتمة بهذا الأمر وفكتوريا تحاول ان تمسك بطوقها. لكن السطح المتجمد تحت الثلج كان أكثر انزلاقاً مما كانت تتصور، وأضاعت توازنها وفي لحظة من الفزع تعثرت وهوت في أعماق المنحدر بعيدة عن المكان التي كانت هيلكا واقفة عليه. تلمست طريقها يائسة محاولة الامساك بشيء يمنع انزلاقها بحيث يكون الرأس في المقدمة، لكنها لم تحصل الا على زخم من القوة الدافعة ولم يكن باستطاعتها ان تعمل شيئاً الا ان تشعر بالرعب المروع بسقوطها على حافة جرف غير منظور.

شاهدت الاشجار امامها وهي تلوح كأنها على وشك الوقوع وبيأس حاولت ان تدير رأسها لكن جزع شجرة أصاب طرف رأسها ولم تعد بعد ذلك تعي شيئاً...

ترنحت فكتوريا قليلا وبدأت تقول وهي غير مستقرة:

«أشعر...».

لكن البارون لم يصغ اليها بل حملها بين ذراعيه الى السيارة ووضعها فيها ثم دلف الى المركبة بعدها. من خلال الضوء خارج السيارة كانت تستطيع ان ترى وجهه المشدود وعينيه اللتين كانتا تتألقان بصورة رائعة. قال بضراوة وهو يرفع أزرار معطفه المصنوع من جلد الغنم.

«انك متجمدة!».

أجابت بوهن وهي تظن انه كان يقصد ان ينزع معطفه عنه من اجلها.

«سأكون بأحسن حال لرجوك...».

«لرجوك ماذا؟».

وقبل ان يدرك قصدها وضع ذراعه حولها وجرّها الى قربه مشيعاً دفء معطفه وسترته على قميصها الناعم ذي اللون الأصفر الشاحب المصنوع من النسيج الحريري الصقيل. كانت حرارة جسمه تتوقد في جسمها مطوقة اياها بجمود قاتل. وضع ذراعيها حول صدره وأطبق بمعطفه حولها بذراعه الأخر. كان من الصعب على فكتوريا ان تفكر بصورة مترابطة منطقياً. كان قرب البارون منها ورائحته الصافية حولها جعلتها لا تفكر به. وارتجفت قليلا وهي في قبضته فاضطرها للنظر في وجهه فوراً عندما قال بنبرة متقطعة:

«أما تزالين تشعرين بالبرد؟».

أدركت فكتوريا هذه العبارة بصعوبة فتمتمت وهي تشد نفسها اليه بدون وعي التماساً للدفء غير عالمة ان هذا الرجل لا يمكن احرازه مرتين وهو اكثر خطورة مما كان عليه مردبث هاموند. تحركت أنامل البارون ببطء على ذقنها وحنجرتها عندما نظر اليها وتأوه بصوت أجش قائلا:

«اعتقدنا انك وصلت عندما رجعت هيلكا وحدها».

هتفت فكتوريا مهتزة:

«هل رجعت؟».

«طبعاً عندما رجعت كانت ماريا وغوستاف على اشد ما يكونان من القلق. فتش غوستاف على كلبي الصيد فعثر على هيلكا وبدون ريب لم تكوني هناك».

ارتجفت فكتوريا ولكن ليس بسبب البرد وحست وهي تشعر بلمسات اصابعه حول أذنيها:

«عليّ ان اعتذر».

لم يجب البارون. ضاقت فتحتا عينيه وتحركت نظراته حول وجهها بشدة ملاحظاً الورم الضارب الى لون الارجوان على صدغها الأيمن وشحوب خديها. كان يبدو عليه في تلك اللحظة انه كان مأخوذاً تماماً بها. بدأت فكتوريا تشعر ان ضغط جسمه عليها كان يتزايد كلما قربها اليه. قال وهو مشبوب العاطفة:

«لا تعتذري مني. انك على قيد الحياة وهذا هو المهم».

أحنى رأسه ووضع فمه في المنطقة المشتعلة من عينها اليمنى. كانت لمسته ناعمة. لاحظت فكتوريا بأنه كان ضابطاً نفسه بارادته الحديدية المعتادة. وجدت انها لم تكن ترغب في أن يضبط نفسه سيما وان الحياة والدفء والأحاسيس كانت تغمر جسمها. كانت ترغب منه بأكثر من ذلك. ولكن ما الذي تستطيع ان تعمله؟

«أدرك ان حوادث الساعة الماضية سببت لنا اثارة عاطفية شديدة ولكن هناك حدود لاحتمالي».

سألته بنعومة وهي تدلك وجهه بيدها.

«هل هذا صحيح يا سيدي البارون؟».

«نعم. لا تناديني بعد الآن سيدي البارون».

ثم امسك بيدها وكانت عيناه تراقبانها بشدة متناهية. حرر يدها ووضع يده وراء رأسها ولم يكن في عناقه رقيقاً بل راغباً. وأغلقت فكتوريا عينيها مطوقة عنقه.

أطلقت فكتوريا لهاثاً خفيفاً وانتزعت نفسها من بين ذراعيه وزررت بلوزتها بأنامل مضطربة. كان شعرها مسترسلاً على كتفيها وبحالة كاملة من الفوضى. شعرت انها مريضة وخائفة. ما هذا الرجل المتزوج؟ كيف سيفكر بالطريقة التي اتخذتها لاثارته؟

ألقت نظرة خاطفة الى حيث كان ينظر بكآبة مستغرقاً في التفكير وهو يزرر معطفه. كان شعره الأشقر الرمادي مجعداً وأناملها تشق طريقها بحذر فيه. وكان يبدو غير ممكن التصديق ان تتصور كم كان متقد العاطفة قبل

لحظات.

«والآن يا آنسة اكتشفت انني اختلف قليلاً عن أجدادي واستطيع ان اسلك بدون رحمة وبلا مسؤولية! طبعاً انني اعتذر كانت تصرفاتي نتيجة لانفعالات مفرطة. لك الحق بأن تحتقريني».

وعت فكتوريا هذا الحديث. عضت على شفتيها حتى سال الدم منها.

اذا أراد ان يكون متشائماً بعض الشيء فأنا سأكون كذلك. قالت بحذر:

«لا لزوم لاعتذارك يا سيدي البارون أنا التي سببت ذلك. يجب ان لا يقال عنها شيئاً بعد الآن. في هذه الأيام لا يقال عن هذا الحادث اكثر من علاقة عابرة».

«كفى».

كانت نبرة البارون عنيفة.

«لا أريد ان أسمع عن المجتمع الذي يسمونه متسامحاً والذي عشت فيه. فلقد اعتذرت! واذا كان ذلك ممكناً لننسى ما حدث كلياً!».

شعرت فكتوريا بأن عضلاتها تيبست فأجابت متوترة:

«نعم يا سيدي البارون».

وبدون ان تلفظ كلمة اخرى فتحت الباب الخلفي من السيارة وسمحت لفريتز ان يثب داخلها وأدارت السيارة بمهارة قبل ان تقودها برفق في الطريق المؤدية الى القصر. ولما دخلا ساحة القصر ألقى عليها نظرة عجلى وأخبرها باقتضاب.

«عندنا ضيفة في البيت صديقة لصوفي ولي التقيت بها في هوفستين. جاءت لتمضية عطلة الاسبوع. ماريا ستهتم بمعالجة جبينك. اطلبيني!».

حدقت فكتوريا مذهولة محاولة بيأس ان تستجمع رباطة جأشها المبعثرة. ان بيان البارون غير المتوقع جعلها تدرك وضعها غير المنتظم ومهما تكن هذه الصديقة فقد تأكدت ان البارون اتهمها بكياسة بأن تذهب الى المطبخ وتتأنق قبل ان يلتقي بها.

خرجت من السيارة مرتعشة وترنحت لحظة عندما فتحت بابها. تقدم منها البارون فوراً وأمسك بمعصمها وهتف قائلاً:

«هل انت بخير؟ هل ترغبين بأن اتصل بالدكتور زيمرمن؟».

ضغطت فكتوريا على شفتيها وهزت رأسها صامتة وأجابت بصورة غير مستقرة:

«سأكون على ما يرام اذا عذرتني».

ثم نزعت بقوة قبضته عن معصمها ومشت عمداً في محاذاة الطريق الى باب المطبخ. هتف بغضب:

«يا آنسة؟».

ولكنها لم تلتفت اليه. طلب منها ان تدخل من المدخل الرئيسي اذا كانت ضيفته تنتظره في قاعة الجلوس الكبرى فلم يكن لديها اية رغبة في لقائها بهذا الوضع. وبالفعل ساورتها الشكوك فيما اذا كان باستطاعتها تناول طعام الغداء.

كانت ماريا وصوفي في المطبخ تتبادلان الحديث وتطلعتا مذهولتين الى فكتوريا التي دخلت شاحبة شعثاء الشعر. هتفت المرأة المسنة قائلة:

«يا الهي! هل أنت على ما يرام؟».

نزعت فكتوريا معطفها بصعوبة مترنحة على ساقيها المهتزتين واقتربت قائلة:

«اشعر فقط بدوار خفيف. هذا كل ما في الأمر. أريد ان اجلس فترة من الزمن».

أجابت ماريا:

«طبعاً».

عطفت ماريا بحرارة وساعدت المربية الشابة للوصول الى المقعد قرب المدفأة. وبعد ان تأكدت من انها في حالة جيدة ذهبت بعيداً ثم رجعت وهي حاملة وعاء فيه مياه حارة فغسلت بها وجه فكتوريا. خضعت فكتوريا واهنة لعنايتها وصوفي تحوم حولها باهتمام تراقب عمل ماريا. كانت عيناها فضوليتين مفعمتين بالشك.

بعدما خرجت ماريا حاملة الوعاء الفارغ بادرتها صوفي بالقول:

«لقد جن أبي عندما علم بفقدك. أين كنت؟».

أدارت فكتوريا رأسها الى وراء الكرسي مرهقة وقالت:

«هيلكا لم تشأ المجيء عندما صحت بها. وذهبت محاولة الامساك بها

ادراج الرياح فوقعت في منحدر التزلج».

توسعت فتحتا عيني صوفي وقالت:

«هل ذهب أبي لاسعافك؟».

«كلا كنت في طريق عودتي الى المنزل عندما التقيت بوالدك».

«مضت فترة طويلة. ماذا جرى عند لقائه بك؟ هل أصبت بكدمة؟».

تلألأت عينا صوفي بلذة خبيثة. أطلقت فكتوريا تنهيدة عميقة. كانت صوفي في هذا الصباح شخصاً يمكن الاجتماع به والتحدث اليه اما الآن فقد عادت فجأة الى سلوكها المعتاد. اجابت فكتوريا:

«كل ما في الأمر اننا دخلنا السيارة ورجعنا الى القصر».

كانت تأمل ان الفتاة الصغيرة لن تتثبت من القضية بصورة أعمق شعرت بأنه لم يحن الأوان بعد للقول ان انفعالاتها العاطفية تشتتت. لم تشعر ابداً في الماضي بمثل هذه الأحاسيس المدمرة. تجهّم وجه صوفي وقالت:

«انا لا أصدقك. ذهب أبي منذ ساعة تقريباً. اذا كان قد وجدك في طريقك الى ريشستين فما الذي أخّركما بالمجيء؟».

«كنا نتناقش».

«من هو الرابح؟».

«لم يربح أحد أنت تعلمين اننا لسنا في حالة حرب».

جعدت صوفي أنفها وقالت:

«انا أجهل هذه الأمور. ترك أبي الآنسة سيباغل منذ مدة طويلة! انني متأكدة من انها كانت حتماً شاحبة!».

بدا على فكتوريا انها لم تفهم أقوالها فسألتها:

«من هي الآنسة سيباغل؟».

«هل ترغبين بأن تعرفي؟».

«على وجه التخصيص كلا!».

وهنا ابتسمت ماريا بحرارة عندما جاءت وقدمت لها صحناً من حساء لحم البقر الشهي.

«شكراً. هذا ما أنا بحاجة اليه».

كانت صوفي تتناول حساءها بانتباه وعلمت ان فكتوريا تنتظر منها بفارغ

الصبر ابداء اهتمامها بالسر الذي اوحت به اخيراً قالت:
«عندنا ضيفة في المنزل».
غرفت فكتوريا قليلاً من الحساء وتناولته، وتجهم وجه صوفي.
«هل حدثك ابي؟».
«نعم».
«اذن تعرفين من هي الآنسة سيباغل؟».
«كلا أليست ضيفة المنزل؟».
«هذا صحيح انها جميلة جداً هل تغارين منها؟».
«أغار منها؟».
«طبعاً انك تحبين ابي أليس كذلك؟».
«قلت في هذا الصباح انني لا احبه».
«كلمني أبي عنك عندما كنا خارجاً وقال انك قادرة تماماً على توجيهي».
لم تكن فكتوريا قادرة على ايقاف تدفق الدم على خديها الشاحبين فعلقت قائلة:
«كم هو ممتع هذا الكلام!».
«قال انك مدرسة جيدة».
«حسن جداً».
«أراد ان تأتي معنا وأنت تدركين هذا الأمر أليس كذلك؟».
«نعم، لقد دعاني».
«كلا لا أعني هذا. اعني كان يرغب بأن تأتي. لا يهمه سواء اتيت أنا أم لم آتِ».
«هذا هراء».
«كلا ليس بهراء. والآن هذه الآنسة سيباغل انضمت الينا فلم يبق لديه وقت لي مطلقاً».
أطلقت فكتوريا تنهيدة عميقة. هذا هو سبب انزعاج صوفي الشديد. لسبب سادها الانطباع بأن والدها لم يقصد بالنزهة بعث السرور الى نفسها والآن جاءت هذه الآنسة سيباغل لتسلية والدها. علقت على ذلك فكتوريا برقة:
«لو كنت مكانك لما بالغت في تصور الأشياء. كثيراً ما يتسلى الوالدان

مع البالغين الآخرين. لو كانت والدتك هنا ربما كرس لها نفسه».
لم تكد تلفظ فكتوريا هذه الكلمات حتى ادارت صوفي سكينها التي كانت بيدها نحو فكتوريا وبعد ان أنهت تناول حسائها نهضت فجأة وقالت بعنف:
«أبي كان يكره امي. انت تعرفين أين هي».
لم يكن باستطاعة فكتوريا ان تعي اكثر من ذلك. قالت لمدبرة المنزل المسنة:
«لا ارغب بأي طعام آخر. كان هذا الحساء رائعاً ولكنني منهكة وعليّ ان انام باكراً. ارجوك ان تعتذري لي من البارون...».
اجابتها صوفي بحزم:
«سأنقل اعتذارك الى البارون والآن هل أنت متأكدة من انك بخير؟».
اومأت فكتوريا برأسها علامة الموافقة وسارت باتجاه غرفتها. وجدت فكتوريا الراحة عندما أغلقت الباب وتراءى لها ان بامكانها ان تترك وراءها العالم وجميع مشاكله.
استلقت فكتوريا على فراشها وضغطت بشدة على وسادتها. ولحسن حظها زال الارهاق الذي ألمّ بها بعد مضي بضع دقائق واستطاعت ان تنام...

٩- ظلال تثب الى الجدران . . .

شعرت فكتوريا في الصباح التالي بأن صحتها على ما يرام ولو انها تشكو من صداع اضطرت لتهدئته بأخذ حبّتين من الاسبيرين. تراءى لها انها محظوظة جداً لابلالها بهذه السرعة. فوجدت بماريا تقرع باب غرفة نومها بينما كانت تلقي نظرة على ثيابها. عندما سمحت لها بالدخول رأت انها تحمل صينية فيها ركوة قهوة وبعض ارغفة خبز ساخنة وزبدة وفاكهة من الفريز. ابدت دهشتها لرؤية فكتوريا خارج الفراش:

«تعليمات السيد البارون تقضي بالبقاء في فراشك طوال اليوم يا آنسة».

«طبعاً هذا لطف منه ولكنني افضّل ان انهض من الفراش اذا كنت لا تمانعين؟».

«ليس لي ان اقرّ ذلك يا آنسة. اذا كنت ترغبين بالنزول افعلي ذلك».

ابتسمت فكتوريا ابتسامة حقيقة.

«النار في المدفأة انطفأت ربّما استطيع النزول الآن».

ثم لمست ماريا بصورة غير لبقة. «افضّل ان اكون معك».

رقّت خطوط وجه ماريا. وأومأت برأسها علامة الموافقة:

«حسناً يا آنسة».

كان غوستاف في المطبخ وعبّر عن شعوره بالتعاطف معها في الحادث الذي وقع يوم أمس. كانت صداقته الخشنة التي عبّر عنها بصدق بلسماً لروحها المحطمة ورقّ مزاجها كثيراً. وبينما تتناول طعام الافطار ظهرت صوفي وحدقت في فكتوريا متفحصة. واعلنت بصلابة:

«تبدين رهيبة».

رفعت فكتوريا حاجبيها واجابت:

«ارى انك تبدين على أحسن وجه».

جعّدت صوفي انفها وقالت متخذة خطة الدفاع:

«اعطى والدي تعليمات الى ماريا بأن تقضي اليوم في الفراش».

«لا أرغب في البقاء في الفراش عندما لا اكون مريضة. وعلاوة على ذلك لدينا عمل، نقوم به».

هزت صوفي كتفيها بلا مبالاة:

«قال لي والدي لست ملزمة بأن اعمل اذا لم ارغب في ذلك».

«الآ اذا كان هذا العمل يتعلق بي».

«لا ارى موجباً للعمل في نهاية الاسبوع».

«حسناً جداً. سنفحص القماش الذي كلمتك عنه بدلاً من الدرس».

لوت صوفي قسمات وجهها لاضحاك فكتوريا وقالت:

«سيذهب والدي والآنسة سيباغل في نزهة بالسيارة. ارغب في الذهاب معهما».

اطلقت فكتوريا تنهدة وقالت بنفاد صبر:

«اذهبي اذن».

علّقت ماريا على ذلك قائلة وهي تحمل المعجن في نهاية الطرف الآخر من المنضدة.

«لم يدعك والدك للذهاب. ربما كان الافضل لك ان تقبلي اقتراح الآنسة مونرو وتبقي معها».

انفجرت صوفي غاضبة:

«وماذا تعرفين عن هذا الامر؟ في ايّ حال لا ارغب بتفحّص اي قماش».

احنت فكتوريا رأسها واعادت كأس القهوة الى المنضدة. نظرت ماريا اليها بتفهّم ولاحظت فكتوريا بعد تفكير عميق ان هذه المرأة المسنّة تكنّ لها بعض العطف. اختفت صوفي واخذت فكتوريا تساعد ماريا على تنظيف المنضدة قبل ان تذهب الى مكتب البارون. كانت في بنطالها الفضفاض وكنزتها الصوفية الغليظة تبدو هزيلة ولكن ترك شعرها طليقاً مكّنها من ان تخفي الكدمة غير اللائقة في جبهتها. قرعت على باب المكتب وعندما لم يجب احد اطلقت تنهدة ارتياح. طبعاً لم يرغب البارون باستعمال مكتبه في هذا الصباح ويمكنها ان تستعمله مع صوفي اذا ظهرت هذه الأخيرة ثانية. كانت النيران المتوهجة ترسل ظلالاً تثب الى الجدران اما في الخارج فكان

المنظر كئيباً. الغيوم المتكاثفة فوق ذرى الجبال تحجب اشعة الشمس وتخفي قممها عن الانظار. جلست فكتوريا الى المنضدة وبدأت تدوّن ملاحظاتها من كتُب يبحث في ما قبل التاريخ. كانت تائهة في عالم الماموث (افيال ضخمة منقرضة) وسكان الكهوف عندما فتح الباب ودخلت منه امرأة. رفعت فكتوريا بصرها اليها غير قادرة في تلك اللحظة على معرفتها. ادركت بعدئذ انها الآنسة سياغل التي تكلمت عنها صوفي. كانت رائعة الجمال. شعرها فضيّ كشعر البارون وقصير جداً. عيناها الداكنتان ترصّعان وجهها الصغير الفاتن. ومستحضرات التجميل تزيدهما سحراً وجمالاً. كانت ترتدي ثوباً انيقاً طبعت على قماشه غابة رائعة. وبما انها كانت هيفاء وصغيرة الجسم فقد كانت تبدو كحزمة من قصب تتمايل في الهواء. اذا كانت فكتوريا فوجئت برؤيتها فهي بدورها بدت مذهولة الى ابعد الحدود لرؤيتها جالسة الى منضدة مضيفها في مكتبه الخاص. وبعد لحظة من السكون المطبق قالت بلهجة حادة:

«اين السيد البارون؟».

عضّت فكتوريا على شفتيها وقالت:

«انا لا اتكلّم الا الانكليزية. هل تفهمينني؟».

تجهّم وجه الآنسة سياغل وردّت بانكليزية صحيحة:

«من انت وماذا تفعلين في مكتب البارون؟».

كانت دهشة فكتوريا عظيمة. قد تكون الآنسة خبيرة في علم اللغات او بصورة اكثر تحديداً، غير نمساوية. على انها ضبطت فضولها ونهضت قائلة:

«اسمي فكتوريا مونرو وأنا مربّية صوفي. انا استعمل مكتب البارون كحجرة للتعليم».

«اين ربّ عملك؟».

«لا اعرف اين هو. ينهض عادة باكراً ويجول في ممتلكاته خارج القصر في هذا الوقت».

«انا مزمعون على زيارة بعض الاصدقاء هذا الصباح. أريد ان اعرف متى».

وومضت عينا الآنسة سياغل:

«انك حديثة السن بهذه الوظيفة اليس كذلك؟».

اجابت فكتوريا بنبرة يشوبها الانقباض:

«وأنا في الرابعة والعشرين من عمري».

«كما قلت لا تزالين حديثة السن». ورفعت حاجبيها بسخرية. انها في الثلاثينات وربّما اكثر اي بعمر البارون نفسه. وفكرت فكتوريا: لا ارى هذا العمر يناسبه. اخذت الآنسة سياغل تفحص القماش المعدّ للخياطة وقالت برفق وبعد تفكير عميق:

«اليس هذا لصوفي؟ انها بدون ريب بنت مزعجة الا تظنين ذلك؟».

احمرّ وجه فكتوريا وقالت بأنفة.

«كلا لا اظن ذلك! كل ما في الأمر انها لا تشعر بالأمان ومردّ ذلك غياب امّها».

تجهّم وجه المرأة الاكبر سناً وهزّت كتفيها قائلة:

«أتعنين السا؟ بما ان السا لن تعود يجب ان تتغلب على ذلك منذ الآن».

كانت انامل فكتوريا تمسك بحافة المنضدة وغامرت بالقول:

«انها فتاة صغيرة بحاجة الى امرأة».

«اوافق على ذلك. لكن صوفي تجاوزت سن الطفولة. اعني انها ستعود في آخر الامر الى مدرسة داخلية. اليس كذلك؟».

«اعتقد ذلك».

«وعندئذ ينتهي عملك».

«نعم يا آنسة».

اخرجت الآنسة سياغل من جيب ثوبها بضع لفائف تبغ وقدمتها اليها قائلة: «هل تدخنين؟».

فهزّت فكتوريا رأسها قائلة: «كلا اشكرك».

اشعلت المرأة الاكبر سنّاً لفافة ودخّنتها بلذّة فائقة. ثم رفعت بصرها الى فكتوريا مرة اخرى وقالت:

«ما الذي جاء بفتاة مثلك الى ريشستين؟ حتماً توجد اماكن للعمل اكثر سهولة!».

«أحبّ العمل هنا».

«لم تجيبي على سؤالي. قلت ما الذي جاء بك الى هنا؟».

اجابت فكتوريا متوترة:

«لم يجلبني شيء غير الوظيفة».

«كلا. ألم تقرري تجربة حظك بأن تصبحي البارونة التالية عندما التقيت بالبارون الوسيم؟».

فاتقد وجه فكتوريا:

«بالطبع لا».

ابتسمت الضيفة وعلائم البغض بادية عليها.

«يظهر من تكلّفك هذا الوضع ان الفكرة ربما راودتك؟».

نفد صبر فكتوريا فقالت:

«لا تكوني حمقاء. وعلاوة على ذلك لا يزال للبارون زوجة».

اطلقت الآنسة سياغل ضحكة خفيفة وقالت:

«لصوفي والدة. هذا تماماً شيء آخر».

وبينما كانت فكتوريا تحدق فيها بذهول دخلت صوفي الى المكتب تبحث عن سبب غياب الآنسة سياغل، فرأتهما جالستين في سكينة. كان من جراء تدخلها ازالة الصمت بينهما ولكن فكتوريا تساءلت بقلق كم مضى على صوفي وهي تنصت الى حديثهما في الخارج.

جثمت الآن في زاوية قريبة من المنضدة تنظر الى الآنسة سياغل، وسألتها بسخرية:

«ألم ترتدي بعد احسن ما عندك من الملابس؟ والدي لا يحب الملابس الحقيرة».

صاحت فيها فكتوريا بصوت مرتعش:

«صوفي! اعتذري فوراً».

لوت صوفي قسمات وجهها لاضحاك الآخرين وقالت:

«لماذا؟ هذا صحيح انها لم ترتد احسن ما عندها من الملابس».

«اصغي الي ايتها الفتاة الصغيرة الوقحة. ان الثوب الذي ارتديه الآن يمكن ارتداؤه في المنزل!».

هزت صوفي كتفيها استهجاناً.

«هذا ليس منزلاً. انه قصر!».

اطلقت المرأة الاكبر سناً اماءة اشمئزاز.

«ليس في نيّتي ان امضي وقتي في التحدث اليك يا ابنتي. لدي اشياء

اهم اشغل بها وقتي. ارجوك يا آنسة مونرو ان تطلبي من البارون عند رجوعه ان يحضر ويراني في غرفتي».

«نعم يا آنسة».

كان هذا جواب فكتوريا الآلي. واختفت الآنسة سياغل يتبعها دخان لفائف التبغ والعطور الاجنبية. بعد ذهابها ابتعدت صوفي عن المنضدة واغلقت الباب وهي تنظر بتحدٍّ الى فكتوريا. قالت فكتوريا بهدوء وهي تجلس:

«كنت فظّة جداً».

قالت صوفي بكآبة:

«انني لا احبها. وهي لا تحبني وانت تعرفين ذلك».

«لا اعرف شيئاً مما تقولينه. بحق السماء توقفي عن لمس هذا الحبر بجميع انامِلك».

اطلقت صوفي زفرة قوية ثم تفحصت انامِلها.

«ماذا تفعلين هنا؟ قلت لك انه ليس بنيّتي ان اعمل هذا اليوم؟».

«اتردّد بتذكيرك يا صوفي، ولكن اذا قرّرت العمل فيجب ان نعمل على تفهيمي؟».

«آه، لا تتكبّري! اعرف ان بامكانك ان تلوي ابي حول خنصرك!».

ذهلت فكتوريا لهذا الكلام فقالت مروعة:

«هذا ليس صحيحاً».

اتكأت صوفي على كرسي وقالت:

«اعتقد انه صحيح».

ثم وضعت رأسها في احد جوانب الكرسي.

«الآنسة سياغل لا تحبك انت ايضاً».

وضعت فكتوريا كتبها جانباً.

«هل بامكانك ان تتوقفي عن التصرف هكذا؟ انت لا تعرفين شيئاً عن عواطف والدك او عواطف الآنسة وتحاولين الآن احداث المشاكل؟ واما فيما يتعلّق بي فانا مطلعة على مكائدك الصغيرة فتوقفي عنها!».

لوت صوفي قسمات وجهها لاضحاك فكتوريا وثنت ساقيها على ذراع الكرسي.

«وتعاملينني دائماً كطفلة. اتعلمين انني لم اعد طفلة اذ ناهزت العاشرة من عمري؟ في الهند تتزوج البنت في سن أصغر وتلد في الرابعة عشرة من عمرها أو أقل من ذلك!».

فذكّرتها فكتوريا بجفاء:

«هذه البلاد ليست الهند».

«اعرف ذلك ولكن ما يقع في بلد يمكن ان يقع في بلد آخر. هل كان لك رفقاء من الفتيان عندما كنت في انكلترا؟ عندما كنت في طور المراهقة؟».

«بعض الفتيان».

«هل كان لك ولد؟».

«طبعاً لا».

هزت صوفي كتفيها بلامبالاة وسألتها بفضول:

«هل يجب ان تتزوجي حتى تلدي اولاداً؟».

نهضت فكتوريا فجأة واجابت بلطف:

«لا اعتقد اننا بحاجة لمناقشة هذا الموضوع الآن».

«لماذا؟ هذا يهمّني. لا اعتقد ان امي كانت متزوجة من ابي عندما ولدتني».

غضبت فكتوريا وقالت:

«صوفي!».

«انني لا أكذب!».

«لا يهمني اذا كنت كاذبة ام لا، لكن لا أرغب بأن اصغي لمثل هذه الاشياء».

«لا ارى ما يوجب عدم سردها الا اذا كنت خائفة من ابي».

اجابت فكتوريا بحدّة:

«قلت لك سابقاً انني لا اخاف من والدك».

«ماذا يجري هنا؟».

دوّى صوت ذو نبرات حادة جعل صوفي تقفز من كرسيها بينما فكتوريا اهتزت قليلاً. ألقى البارون عليها نظرة عجلى ثم نظر الى ابنته وقال لها:

«ماذا في الأمر؟».

«لا شيء يا ابي. كنا نتناقش في مسائل اجتماعية. هذا كل ما في

الأمر».

ارتسمت على شفتي فكتوريا ابتسامة. كان هناك شيء مزعج ومع ذلك يبعث على التسلية في صوفي.

دار البارون حول فكتوريا ثم سألها:

«هل هذا صحيح يا آنسة؟».

احمرّ وجه فكتوريا بشدّة. يبدو انه سمع الحديث وهو يدخل الغرفة، وكان مصمّماً على تحدّي جوابها. اجابت اخيراً:

«لا شيء هام يا سيدي البارون. وبالمناسبة كانت الآنسة سياغل تفتش عنك وطلبت مني ان اسألك اذا كان بامكانك الذهاب لرؤيتها».

احنت فكتوريا رأسها والقت بالاوراق على المنضدة.

كانت موضوع اهتمام البارون الكامل وقال لها بحدّة:

«وانت يا آنسة ماذا تعملين هنا؟ اعطيت تعليمات الى ماريا بأن تبقي في الفراش هذا اليوم. يبدو ان كل أمر يصدر مني معناه تشجيعك على العناد».

رفعت فكتوريا بصرها اليه.

«انني بصحة جيّدة يا سيدي البارون. ماريا اطلعتني على أمرك ولكنني افضّل ان انهض من الفراش واتجول في القصر».

«وعلى الرغم من ذلك كنت افضّل ان تأخذي قسطاً من الراحة. طلبت من الدكتور ان يزورك زيارة قصيرة فيما بعد».

«لا حاجة لذلك. لست مريضة».

«كان من الممكن ان تصابي بارتجاج مخي».

«اشكّ في ذلك».

حدّقت فيه مستقصية. كم من الافكار تمر وراء هذا المظهر الكاذب البارد؟ لماذا جاءت الآنسة سياغل؟ قالت انها احدى صديقاته لكن فكتوريا شعرت ان المرأة الاخرى تظهر له اهتماماً خاصاً، وكأنها تعتبره من ممتلكاتها. هل هذا الشعور متبادل؟

حدّق البارون بصوفي وقال:

«اذهبي واخبري الآنسة سياغل بانني سأكون جاهزاً للرحيل في نصف ساعة وانت يمكنك ان تستعدّي أيضاً».

تلألأ وجه صوفي.

«هل تعني بأنني سأذهب معكم؟».

وأخذت تقفز باهتياج كطفلة سعيدة.

تبعها البارون حتى الباب وبعد ان ذهبت وهي ترقص طرباً اغلق الباب ورجع الى فكتوريا. اسند ذراعه الى المنضدة واخذ ينظر اليها بحدّة ثمّ قال لها بلطف:

«هل تشعرين حقاً بأنك على ما يرام؟ لم اسألك ان تبقي في الفراش الاّ لمصلحتك».

ضغطت فكتوريا على شفتيها وتمتمت بانقباض:

«هذا لطف منك يا سيدي البارون».

«ارغب الاّ تدعيني بهذا اللقب».

كانت انفاس فكتوريا تخفق بعصبية.

«بماذا تريد أن ادعوك؟ يا سيدي؟».

«اسمي كما تعلمين هورست!».

اشاحت فكتوريا بنظرها عن عيني البارون المصوبتين نحوها بامعان، وقالت بانفعال وكيانها العاطفي على وشك ان ينهد:

«انت تعلم انني لا استطيع ان اخاطبك هكذا».

«يجب ان نتحدث حول ما جرى في الليلة الماضية».

«قلت لي ان عليّ ان احاول نسيان ما حدث».

«هل بامكانك ذلك؟».

«سأحاول ان اعمل بموجبه يا سيدي البارون».

قال بحزم:

«أريد ان اكلّمك فقط. ادرك ما اقوم به ولكنني لا استطيع ان اوقف نفسي عن ذلك!».

كانت كلماته الأخيرة عنيفة ويشوبها النفور من نفسه. ترددت فكتوريا ثم استدارت قليلاً: كان قريباً جداً منها فاذا بها ترى أهداب عينيه الطويلة الكثيفة وتلحظ الخطوط الصغيرة قرب عينيه. كانت ترغب بأن تلمسه بأية طريقة. وكانت مشاعرها الحميمة نحوه تجلب لها المتعة الحيّة والالم في وقت واحد. قالت برباطة جأش وهي تتأمل افكارها المشتتة.

«حسن جداً».

وبدا عليه انه يجد صعوبة في البدء بالكلام. مدّ يده حول مؤخرة عنقها بنفاد صبر وقال:

«اريد ان تعرفي انه ليس من عادتي تبرير ارتباطات عاطفية مع مربّيات صوفي».

«لماذا تحدثني بهذا الامر؟».

ردّ بعنف قائلاً:

«تعلمين بأنك ثالث مربّية استخدمتها لأجل صوفي».

«هل تعني انها تركتا العمل لاهتماماتك غير المشروعة بهن؟».

قال وهو يطلق يده في شعرها. «هذا صحيح».

هزت فكتوريا رأسها. لم تخطر لها هذه الامكانية من قبل.

«بالاضافة الى ذلك فان تأثيرك على صوفي خلال الاسابيع الثلاثة الأخيرة قد طوّر حافزها الفكري. وبينما اعرف انك ستقولين لا يزال هنالك عمل كبير يجب القيام به، فانّها خطت الخطوة الاولى، وهذا هو المهم. لهذا يجب ان أجتهد في تفسير سلوكي وان لا تشعري بأن عليك ان تتخلّ عن منصبك بسببي».

«التخلي عن منصبي يا سيدي البارون؟».

«طبعاً. لن اغفر لنفسي اذا كان سلوكي الجدير بالازدراء سبباً في حرمان صوفي من الفرصة بأن تدرس على يدي مربّية معجبة بها وتحترمها».

استوعبت فكتوريا هذا الكلام بصعوبة. اتضح الآن ان البارون آسف بشدة لتصرفاته المتهورة وان مخاوفه الرئيسية تكمن في انها ربما تترك القصر نهائياً.

خطت فكتوريا خطوة الى الوراء وقالت:

«لا تقلق من هذه الجهة مطلقاً يا سيدي البارون. انني مصممة مثلك على تأهيل صوفي لتصبح بنتاً طبيعية. اما بخصوص احترامها لي واعجابها بي فانني غير متيقنة بأنني اتمتع بهذه الصفات. وربما شيء قريب من التذمّر أدنى الى الواقع».

حدق بها بشدة وقال:

«لقد اغضبتك».

«لم تغضبني مطلقاً- انما رغبت بأن تتركني اتابع القيام بعملي. الآنسة سياغل تنتظرك».

واسبلت عينيها عند هذه العبارة الأخيرة.

«الآنسة سياغل لا تعني شيئاً بالنسبة لي. هي صديقة لي فحسب. سرت اشاعات في تلك الأيام انها تناسبني وانني ربما اتزوجها ولكن لم يتحقق شيء من ذلك. فمرغريت ذهبت لانكلترا لتعمل هناك. انها مصممة ازياء ناجحة جداً على ما اعتقد».

رفعت فكتوريا كتفيها بلا مبالاة وقالت بشيء من الوقاحة:

«هذا لا يعنيني يا سيدي البارون مطلقاً».

سألها بنبرة باردة:

«الا يعنيك هذا الأمر؟».

«شرحت لي منذ لحظات بأن ما بيننا كان نتيجة ظروف سيئة. فكيف تريد ان تعنيني أمورك الاخرى؟».

«انك مصممة على محاولة اغاظتي يا فكتوريا!».

«لماذا لا تذهب اذن؟ لماذا نتحدث هنا؟ ما هي الغاية من ذلك؟ هل تطلب مني ان اساعدك حتى تعود الى زوجتك بصفاء ذهن؟».

كان الشحوب يشوب وجهه فقال:

«اطمئني- ليس لي زوجة!».

هل صحيح ان لا زوجة له؟ من كانت اذن المرأة المفروض انها زوجته؟ ما قالته صوفي صحيح؟ ان والدها لم يتزوج امها؟

نهض بملء طوله الفارع ومشى الى الباب وهناك توقّف ونظر اليها بهدوء:

«الآن عرفت يا آنسة ان فضولك حول والدة صوفي لا مبرّر له».

«هل تعني ان والدة صوفي ماتت؟».

ضاقت عيناه:

«انها على قيد الحياة وفي أحسن حال ومقيمة في ستوتنكارت!».

ودون ان يترك فرصة لسؤاله عن سبب ذهابها اغلق الباب بعنف.

١٠- الغوص في الماضي

مرّ اليوم بسرعة زائدة. حملت ماريا الى فكتوريا خبراً هو ان البارون وضيفته وصوفي لن يرجعوا الى القصر قبل موعد تناول الغداء.

سمعت صوت سيارة تدخل ساحة القصر فنهضت ومشت نحو النافذة لترى من القادم. كانت سيارة الدكتور كونراد زيمرمن ورآها تتطلع الى الخارج فلوّح بيديه محيّياً كما فعل في المرة السابقة. لم تفكر في هذا الوقت بالذات اذا كان يستطيع تسليتها بغياب البارون. كان يريحها جداً ان تجد شخصاً تتحدث معه ويصرف انتباهها عن الجو الخانق الذي يكتنفها. فتحت له الباب عند وصوله وارتسمت ابتسامة على وجهه عندما رحّبت به بسرور. قال مقلّداً نبرات البارون العميقة:

«ماذا تعملين هنا يا آنسة؟ هل تنتظرين رجلاً ما؟».

ابتسمت فكتوريا وقالت:

«لا تكن سخيفاً يا كونراد. تفضل وادخل. الجو متجمد في الخارج. قال البارون انه طلب منك الحضور لزيارتي. لم يكن بحاجة لذلك من الوجهة الطبية اذ انني على اتم ما يرام صحيّاً».

«هل هذا صحيح؟ لماذا كنت تتسلقين المرتفعات اذن؟».

«كنت احاول القبض على هيلكا. رفضت المجيء معي عندما ناديتها فحاولت الامساك بها».

«هذا صحيح».

هز رأسه علامة الموافقة. ووضع حقيبته الطبية فوق المنضدة.

«بما انني هنا فسألقي نظرة على الاصابة وعندئذ ربما دعتني ماريا لتناول الغداء».

نزع معطفه واردف قائلاً:

«اذا لم تقم حالة طارئة وهذا ما لا اتوقعه فانني حر لمدة ساعتين. كنت اتوقّع استقبالاً اكثر حرارة».

«آسفة. اشعر بأنني لست حرة بأن استضيفك وانا مجرد مستخدمة هنا».

«لا بأس ماريا ستسمح لي بذلك. تناولت طعام الغداء هنا مرات عديدة عندما كان هورست خارج القصر طوال اليوم».

فتح حقيبته الطبية وقال:

«أرني رأسك».

بقي كونراد حتى ما بعد الظهيرة جالساً في المطبخ مع المرأتين يمتعهما بسرد النوادر المضحكة عن مرضاه. تراءى لفكتوريا انه شخص لطيف فتساءلت لماذا اقحمها قدرها المشؤوم بين اناس كانوا على خلاف ذلك.

بعد ذهابه بقيت مع ماريا تلمس باصابعها سطح خزانة الاطباق وادوات الطهو اللامعة وترفع قدراً صغيرة ذات مقبض متألقة تتفحص مظهرها الخارجي وهي مستغرقة في التفكير. ثم استدارت وقالت:

«من هي والدة صوفي يا ماريا؟».

بقيت ماريا لحظة ثابتة في مكانها ثم قالت اخيراً:

«آه، لا شأن لي بذلك يا آنسة».

فتنهدت فكتوريا:

«لماذا كل هذه الاسرار؟ كل من اسأله يمتنع عن التكلم حول موضوع هذه المرأة. لماذا؟ ماذا حدث؟».

«لماذا لا تسألين البارون يا آنسة؟».

«قال لي البارون هذا الصباح ان والدة صوفي تعيش في ستوتكارت. هل هذا صحيح؟».

اجابت ماريا:

«اذا كان سيدي البارون قال هذا فمعناه انه صحيح».

«وقال ايضاً ان لا زوجة له».

«هذا ايضاً صحيح يا آنسة».

«على اني عندما سألتك عند حضوري ابن البارونة قلت انها ليست هنا ملمحة الى انها في مكان آخر».

هنا اومأت ماريا برأسها موافقة:

«هذا صحيح، البارونة هي والدة البارون. تأتي الى ريشتين في

الصيف ولكن في الشتاء حين يشتد البرد تبقى في فيينا مع شقيقته».

استوعبت فكتوريا هذا الكلام بصعوبة. وهكذا فللبارون والدة وشقيقة. تخيلت بطريقة أو بأخرى ان البارون آخر شخص متحدر من اسرته باستثناء صوفي طبعاً. قالت اخيراً:

«فهمت. وهكذا فان والدة صوفي لم تكن البارونة».

«آه لم اقل ذلك يا آنسة».

«هل تعنين انهما تطلقا؟».

ارتبك وجه ماريا فجأة.

«سيدي البارون لا يؤيد الطلاق».

«وهكذا لم يتزوجا قط».

«بل انهما تزوجا في الكنيسة الصغيرة الجميلة الواقعة في ضواحي القرية. لقد شاهدتها وكانت ترتدي ثوباً مزركشاً مصنوعاً في البندقية. كم كان جميلاً؟».

هزت ماريا رأسها والألم يعصرها لهذه الذكرى المرة. تجهم وجه فكتوريا وهتفت بيأس:

«اعتقد انك تحاولين متعمدة بلبلة افكاري».

رفعت ماريا حاجبيها:

«ربما يا آنسة أكون كذلك».

ثم هزت كتفيها استهجاناً:

«في اي حال لم يبق البارون بعدئذ كما كان عهدنا به».

بقي شيء واحد كانت ترغب في ايضاحه. سألتها بتردد:

«قولي لي يا ماريا. هل البارون يكره الشعر الطويل؟».

كان هذا السؤال يبدو سخيفاً وانتظرت الجواب وهي محتارة. رفعت ماريا بصرها اليها وقالت:

«كان شعر والدة صوفي طويلاً. اعتقد ان سيدي البارون فكر بها عندما رأى شعرك الطويل». في الايام القليلة التالية لم تر البارون والآنسة سباغل لم تغادر القصر في يومين كما كان متوقعاً. واذا كانت اسباب بقائها اكثر من ذلك غامضة بالنسبة الى فكتوريا، فلم تكن كذلك بالنسبة الى صوفي.

اعلنت صوفي بعد ظهيرة احد الايام لفكتوريا عندما كانت منهمكة في وضع علامة لاختبار مدى نجاحها في التحصيل:

«هذه المرأة افعى».

رفعت فكتوريا بصرها اليها مذهولة. كانت صوفي مقطّبة الجبين تحدق ليها متناسية عملها مؤقتاً. قالت فكتوريا برفق:

«افترض انك لا تتكلمين عني».

لوت صوفي قسمات وجهها لاضحاكها وقالت:

«حتماً لا. تعرفين عمّن اتكلّم، عن سياغل».

وضعت فكتوريا قلمها على المنضدة.

«كيف يمكنك ان تصدري احكاماً قاسية كهذه؟ انك لا تكادين تعرفين هذه المرأة».

«اعرف انها جاءت الى ريشستين لظنها ان ابي سيقع في حبها ويتزوجها».

كظمت فكتوريا المشاعر التي اثارتها في نفسها عبارات صوفي.

«اعتقد انك اصبحت تتصرفين بدون ضرورة تصرّف فتاة ناضجة يا صوفي. أنا متأكدة ان الآنسة سياغل ليست بالمرأة التي تقنع بالعيش هنا في هذا المكان المنعزل في ريشستين. انها امرأة اجتماعية وعلاوة على ذلك عندها عمل في لندن».

هتفت صوفي بازدراء:

«الا ترين انها لا تفكر بالبقاء في ريشستين؟ انها على الاكثر تتوقع ان يبيع والدي القصر والممتلكات التي حوله ويذهب ليعيش معها في فينا او في مكان آخر مماثل».

بللت فكتوريا شفتيها الجافتين بلسانها:

«انا متأكدة ان والدك لا يمكن ان يقوم بعمل كهذا، انه يحب ريشستين. هذا هو موطنه وهذه هي ممتلكاته! لا اعتقد ان امرأة في العالم تستطيع التأثير على والدك وتحمله على بيع ممتلكاته في ريشستين».

«هل تعتقدين انه لن يفعل ذلك؟».

«طبعاً. ولو كان في الحقيقة يرغب في البيع لكان فعل ذلك منذ سنوات عديدة».

«اعرف ذلك. لكن لم يكن هنالك الآنسة سياغل».

«قال لي والدك بأنه عرفها مدة طويلة. قبل ان يتزوج والدتك».

تغير وجه صوفي. «وانه لم يتزوج والدتي».

صاحت فكتوريا بنفاد صبر:

«طبعاً تزوجها. أفادتني ماريا بذلك».

اخذت صوفي نفساً عميقاً وقالت بيأس:

«لم يكن زفافاً حقيقياً، اذ كانت والدتي متزوجة من شخص آخر».

شعرت فكتوريا ان الدم يتدفق من وجهها فقالت بارتباك:

«ما هذا الكلام؟».

«لا اعتقد ان ماريا حدثتك بهذا الموضوع».

واحنت صوفي رأسها وهي تتفحص اظافرها.

«لا يهمني اي شيء. انني غير محتاجة لأحد».

نهضت فكتوريا وبدأت تنصحها قائلة:

«لا تضخّمي الامور يا صوفي. يجب ان تعتبري نفسك سعيدة لأن لك والداً».

هزت صوفي رأسها وتساءلت بكآبة:

«هل لي بالحقيقة والد؟».

وجلست فكتوريا مرة اخرى. كانت الاشياء التي باحت بها صوفي تدور في مخيلتها. اذا كان ما قالته صحيحاً فهو يفسّر أشياء كثيرة. هناك تلميحات اصبحت وقائع صلبة. وها هي تتفهم مشاكل البارون مع ابنته. كانت لسوء حظها مطلعة على ما حدث.

«قولي يا صوفي متى علمت بشأن والدتك؟ من قال لك ذلك؟».

رفعت صوفي بصرها اليها شبه مذهولة:

«انها لم تحبني قط ولم ترغب بي. قالت لي ذلك. كنت دائماً مصدر ازعاج لها في طريقها... كسرت مرة زجاجة عطور تخصّها لم يكن فيها كثير من العطور. ولكنها تميزت غيظاً. قلت انني لم اقصد ذلك ولكنها لم تصغ الي وشتمتني بعبارات نابية فظيعة! لم اعرف معنى نصفها ولكنني بعدئذ عرفتها. ومنذ ذلك الحين ادركت اننا لم نكن نشكّل اسرة عادية».

«هل حدّثت والدك بذلك؟ اعني هل عرف والدك كيف تعاملك والدتك؟».

هزت صوفي كتفيها بدون مبالاة:

«اظن ذلك ولكني لا اعرف بالضبط. فقد سلك طريقه الخاص. اعتادت الما ان تعنّفه وتلومه بقسوة. جعلت حياته تعيسة. كنت اشاهد ذلك في بعض الاحيان وأتمنّى ان تذهب بعيداً وتظل بعيدة ولكنها كانت دائماً تعود».

«هل تعتقدين انها ستعود الان؟».

شدّت صوفي على احدى ضفائرها.

«لا اعتقد ذلك وآمل ان لا تأتي».

بدأت فكتوريا تفهم اشياء كثيرة عن صوفي. أصبحت صريحة جداً وودودة تجاه مربّيتها. وقالت وقد هدأت قليلاً:

«في اي حال كما قلت تخلّص والدي منها».

علقت فكتوريا بسخرية:

«بحبسها في البرج الشمالي على ما اظن؟».

«نعم».

«كنت اعتقد انك تعرفينني افضل من ذلك! هل تتخيلين انني اصدق كل هذه الترهات! انك تحاولين اختلاق الاشياء لتوقعي في نفسي الذعر. الا ترين كم هو مضحك هذا العمل الذي تقوم به بنت من عمرك؟ لقد تخطيت السن التي تتخيلين بها مثل هذه القصص الخيالية يا صوفي! الم تقولي لي انت بنفسك انك اوشكت على بلوغ سنّ المراهقة؟ اذن فالمراهقون لا يلفقون القصص والاخبار كما تفعلين».

بدت صوفي متمردة:

«انا لا الفّق الروايات. في أي حال لم أكن أرغب ان اتركها ترحل بدون عقاب!». «والآن اقتربنا من الحقيقة اليس كذلك؟ هذا ما كنت تتمنين حدوثه. لذلك اخترت هذه الرواية السخيفة لتتسلّي بها. آه يا صوفي متى تتعلّمين أننا لا نستطيع ان نحلّ مشاكلنا بمحاربتها او بإسدال الستار عليها؟ يجب علينا ان نتعلم مجابهة الحياة كما هي».

حدقت بها صوفي لحظة وقالت:

«ان وضعك سليم! انت ابنة شرعية وتنتمين الى اسرة».

حدقت فكتوريا بها ايضاً وهتفت بنفاد صبر.

«من الذي ادخل في ذهنك فكرة كونك لست كذلك؟».

كانت معلوماتها اقل من معلومات صوفي في هذا الشأن بينما حدسها ينبئها بأن هذا الكلام صحيح فليست لديها أية بينة تؤيدها ولا يمكن لأحد ان يعطيها الدليل غير البارون. لم تكن فكتوريا تعرف شيئاً عن هذه الأمور. عرفت شيئاً واحداً وهو ان مشاكل صوفي بدأت قبل رحيل والدتها بمدة طويلة ويجب في اي حال التحدث الى البارون. ولكن عليها ان تحدثه وهي تكبت مشاعرها الحقيقية.

خلال اليومين التاليين حاولت فكتوريا بدون جدوى ان تجد مناسبة تتحدث فيها مع رب عملها على انفراد. كان وجود مرغريت سياغل يحول دون تحقيق هذه الغاية وظهر جلياً من وضع البارون انه لم يكن يرغب بالتكلم على انفراد مع مربية ابنته. وربما ظن انها تود اقحام نفسها في شؤونه الخاصة، لذلك استعمل السلاح الوحيد الذي كان بيده وهو ان يبعدها عنه بالاستناد الى سلطته. عندما تأكدت فكتوريا ان مرغريت ستبقى في القصر لمدة طويلة صممت ان تجتهد في التحدث اليه.

وفي احدى الامسيات بعد تناول العشاء ذهبت الى مكتبه وهي على علم بحضور مرغريت عندما دخلت المكتب وجدت المرأة الاكبر سناً جالسة بارتياح في كرسي قرب المدفأة بينما البارون يهتمّ ببعض الاوراق المنتثرة فوق منضدته. لم تكن فكتوريا تفهم معنى مثابرة مرغريت على الاقامة في ريشستين. كانت ملامحها المشبعة بالضجر تعبّر عن افتقارها لكل ما يسلّي، اللهم الا اذا كانت كما المحت صوفي، تنوي بأن تصبح بارونة فون ريشستين في المستقبل. ففي مثل هذه الظروف يمكن لفكتوريا ان ترى مبرّراً لاقامتها الطويلة في القصر. تفطّر قلبها لوعة لهذه الفكرة. لا يمكن للبارون ان يفكر جدياً ببيع القصر وممتلكاته بعد ان سمعته يبدي تعلقه الشديد بها. رفع بصره اليها بحذر وقال باقتضاب:

«نعم ماذا في الأمر يا آنسة؟».

«ارغبُ ان اتحدث اليك يا سيدي البارون على انفراد».

القى البارون نظرة عجلى على المرأة الاخرى، فأصرّت قائلة:

«افضل التكلم معك على انفراد يا سيدي البارون لان المسألة مهمة».

كان البارون قد نهض من كرسيه عند دخولها واستدار نحوها الآن ونظر

اليها بشدة:

«الا يمكنك تأخير هذا الحديث حتى الصباح؟».

كانت اعصابها ثائرة فأجابت:

«كلا لا يمكن ذلك. حاولت ان اكلّمك خلال يومين بدون نتيجة. لا يمكنني الانتظار اكثر من هذا».

حدقت بها الآنسة سيباغل بنظرات يشوبها المرح وهتفت قائلة:

«بحق السماء قولي يا فتاة ما هو هذا الامر؟ انني فضولية جداً!».

تكلم البارون الآن وقال:

«مارغريت! لدى الآنسة مونرو بعض المواضيع حول شؤون تعليم صوفي تحب مناقشتها معي. لذلك ارجوك ان تتكرمي بتركنا وحدنا لبضع دقائق، اشعر بأن هذا الامر بولغ فيه جداً، ولكن الآنسة مونرو لن تتحدث بحضورك».

اخذت فكتوريا نفساً عميقاً لتهدىء نفسها، وتساءلت كيف يتكلم بلهجة تشوبها السخرية حول موضوع بهذه الأهمية.

نهضت مرغريت واقفة.

«لا بأس يا هورست اذا كنت تصرّ، طبعاً سأذهب. ولكن لا يمكن ان اتصور لماذا تختار الآنسة مونرو مثل هذه اللحظة بالذات لاثارة هذا الامر؟».

لم تفه فكتوريا ببنت شفة. اذا فقدت الآن السيطرة على اعصابها فقد تفقد كل شيء. على اي حال يجب ان تبقى هادئة لمصلحة صوفي. بعد ذهاب مرغريت استدار البارون باتجاه فكتوريا وقال:

«هل تتفضلين بالجلوس يا آنسة؟ يبدو عليك انك تشعرين بالبرد».

فضّلت فكتوريا ان تلتزم بالرسميات في الكلام فهزت رأسها وقالت:

«شكراً لك يا سيدي البارون، انني افضل الوقوف».

«ما هذا الأمر الذي لا يقبل التأجيل؟».

«انه يتعلّق بصوفي».

«فكرت كذلك».

«كلا لم تفهمني. على الأقل فهو لا يدور حول عملها الدراسي».

تجهم وجهه وقال:

«كلا؟ اتعنين انها كانت سيئة السلوك مرة أخرى؟».

«كلا انني وصوفي متفاهمتان جيداً. اعتقد انها تقبلني بحالتي الحاضرة. الأمر يتعلق بشيء آخر. انه يتعلق بوالدة صوفي».

رأت فوراً قناع الغطرسة الكئيب ينزل عن قسمات وجهه.

«قلت لك مكرراً يا آنسة انني لا ارغب ان تورطي نفسك في شؤوني الخاصة».

«آه بحق السماء انا متورطة الا ترى ذلك؟ لا تهمني شؤونك الخاصة. كل ما ابتغيه مساعدة صوفي وحتى الآن لست متأكدة بانك مطلّع على مشاكلها».

«أصحيح يا آنسة انك مطلعة عليها؟».

«نعم اعرف ما هو الخطأ عند صوفي. لا اقول انني اعرف تماماً كيف اصححه، ولكنني اعرف ما الذي يحملها على ارتكابه او التفوه بالاشياء التي تفوهها».

«هل انجزت جميع هذه الامور في اقل من شهر واحد يا آنسة؟ كيف وصلت الى هذه النتيجة المدمرة؟».

مست فكتوريا شعرها مساً رفيقاً باحدى يديها.

«ليس بسهولة يا سيدي البارون وليس بالاستهزاء، كما يبدو انك تفعل معي».

«تعالي يا آنسة ماذا سمعت؟».

احمر وجه فكتوريا:

«هل تعلم ان صوفي على علم بأن والدتها كانت متزوجة من قبل؟».

توهجت عيناه قليلاً:

«انك تحفرين بعمق يا آنسة».

«كلا لم افعل ذلك. جل ما في الأمر انني كنت اصغي الى صوفي واحاول ان ادرك تفكيرها».

بدا البارون مرهقاً وقال بشدة:

«طبعاً يجب ان تعرف صوفي كل شيء عن أمها. كانت في السادسة من عمرها عندما انتشر الخبر. وهي من تستطيع فيها ان تفهم الوقائع دون ان تدرك مغزاها».

عضّت فكتوريا شفتها السفلى.

«هناك اشياء تحقد بها وتزعجها كثيراً، حتى انها تفكر بانها ليست ابنتك».

حدق البارون فيها بشدة واجاب:

«ليست ابنتي. نعم يا آنسة، صوفي هي ابنتي وهي ابنتي الوحيدة».

«اذن عليك ان تقول لها ذلك يا سيدي البارون».

«ماذا تعنين؟».

«شعرت عند مجيئي الى هنا بهذه الاسرار التي تكتنف ارجاء القصر، وطبيعي ان تشعر بذلك فتاة صغيرة ايضاً. ما هو الشيء الذي تخجل منه يا هورست؟ اية فضيحة تبقى طي الكتمان مخبأة في ماضيك حتى تضطر بصورة مستمرة لانكارها؟».

«لا تستطيعين ان تدركي بأنني رجل احترم نفسي ولا استطيع الاعتراف باخطاء الماضي».

«بل عليك ان تعترف بها. ولمصلحة صوفي نفسها يجب ان تهدم هذه الخرافة التي تعذب ذهنها الصغير».

«وانت يا فكتوريا هل انك فضولية؟».

«طبعاً».

«أحذرك، هذه الحكاية ليست مبهجة. امرأتي اي والدة صوفي لم تكن امرأة مرضية».

واشعل سيكاره ببطء.

«كانت شابة عندما احتل الاميركيون المانيا وككثير من البنات الالمانيات فتنت بضابط اميركي. طبعاً حدث الشيء الذي لا مفر منه واصبحت حبلى! كان هذا الجزء من الرواية بغيضاً الى نفسها وسارت الى الثاقلة تحدق في المنحدرات الداكنة المكسوة بالثلج. قبل الضابط بتحمل مسؤوليته عندما اطلع على واقع الحال وتزوجها. كان حفل الزفاف مدنياً صرفاً لتغطية ورطة وقعا بها، وبالتأكيد لم تعتبره السا رباط زواج حقيقي يقيّدها. طبعاً ازدادت قناعتها هذه عندما اسقطت جنينها بعد مضي بضعة اسابيع. وعندما عاد الشاب الاميركي الى بلاده رفضت ان ترافقه مفضلة العيش الرغد الذي كانت تتمتع به. علاوة على ذلك كانت في ريعان شبابها والمانيا

موطنها. انني لا أحاول ان اختلق لها الاعذار. كانت مغرمة بمباهج الحياة. ولم تكن ترغب الزواج وتحمّل المسؤوليات. الله يعلم كيف عاشت في السنين التالية، ويبدو جلياً الآن انها لم تكن بالمرأة التي تكتفي برجل واحد».

هز رأسه واستطرد قائلاً وهو ينفض رماد سيكاره في المدفأة:

«كنت غبياً! عندما التقيت بها في فيينا قبل احد عشرة سنة لم انظر الا الى مظهرها الخارجي لا الى داخلها. كانت امرأة جميلة جداً وكنت شديد التأثر بالجمال. اشبعت غروري واعتقد انها وجدت فكرة حصولها على لقب بارونة بزواجها مني مغرية. ولو عرفت قساوة حياتنا هنا في ريشستين لكانت فكرت مرتين قبل الاقدام على الزواج مني. في اي حال لم تبح بزواجها الاول وتزوجنا في كنيسة القرية. منذ البداية كرهت القصر، والعزلة، وطريقة حياتنا المتسمة بالبساطة والاقتصاد والبعد عن الترف وكرهت كل شيء عندنا. حتى انها كرهت الامومة عندما قدر لها ان تكون أماً».

كان يتكلم بصرامة، وكانت فكتوريا تتعاطف مع الآلام التي تحمّلها في تلك الايام.

«ولم يطل بي الأمر حتى ادركت ان زواجنا كان كارثة. اذ لم يكن الواحد مناسباً للآخر. كانت مادية لاقصى الحدود، تطالبني دائماً ان ابيع القصر وجميع ممتلكاتي واستقر في المدينة. وعندما رفضت طلبها تركتني وتركت صوفي وبدأت تقوم برحلات زيارة الى اصدقائها في فيينا وستوتكارت. لا اعرف ماذا كانت تفعل هناك وهذا لم يكن يهمني بقدر ما كنت مشمئزاً من قضية زواجي بأكملها. وفي يوم من الايام جاء رجل الى ريشستين يفتش عن السا. كان الاميركي الذي تزوجته. في الولايات المتحدة كان التقى بفتاة احبها واراد ان يتزوجها ولكن خلافاً لالسا، كان يعرف ان عليه ان يكون طليقاً قبل ان يتزوج ثانية».

واردف قائلاً:

«سوف لا ادخل في التفاصيل الدنيئة خلال المقابلة التي حصلت بينهما. يكفي ان أقول ان السا استفادت من هذه الفرصة وهربت من الحياة التي كانت تمقتها وتشمئز منها».

لم تستطع فكتوريا ان تتحاشى الكلام فقالت:

«وماذا كان وضع صوفي؟».

اطلق البارون ايماءة بليغة.

«لم تعتن السا بصوفي ابداً. الامومة لم تكن تغريها. ليس لها غرائز من هذا النوع.

لم تكن صوفي بالنسبة اليها الا عبأً تتحمله».

جلست فكتوريا في كرسيها وقالت:

«هذا فظيع!».

هز كتفيه استهجاناً. «وما عساي ان أقول اكثر من ذلك. السا تركتنا وهي تعيش الآن على ما اعتقد في ستوتكارت. لم نرها بعدئذ ولم تعبّر عن اية رغبة في رؤية صوفي».

رفعت فكتوريا بصرها اليه وقالت:

«الم ترغب في التزوج مرة اخرى؟».

«اتريدين ان اتزوج يا فكتوريا! لا بد انك تمزحين من هي المرأة التي استطيع ان اطلبها لتقاسمني حياتي الخشنة هذه؟ ولتتحمل مسؤولية هذا النسل غير الشرعي!».

صاحت فكتوريا.

«هورست».

«لا تقلقي. صوفي ابنتي. تبنّيتها بصورة قانونية لأضيّع على السا فرصة المطالبة بها يوماً ما فيما اذا خطر لها ان تأخذها مني. ان صوفي هي كل ما تبقى لديّ».

«هل تعرف صوفي انك تبنيتها؟ وانك والدها الحقيقي؟».

«وهل هي بحاجة الى ان تعرف ذلك؟».

«آه نعم! فهي تعتقد انها بدون والدين بالمعنى الحقيقي للكلمة. انها تحبك حتى الجنون ولكنها تخشى من عودة السا. انها تفهم ولا تفهم. ووضعك معها يزيد الامر سوءاً. بالنسبة الى فتاة صغيرة يمكن للشك او للخوف الخيالي احياناً ان يسبب ابشع انواع الجروح».

وضع البارون يده على جبينه:

«هل تشك صوفي في انها ابنتي؟».

«هل ناقشت هذا الموضوع معها؟».

«طبعاً كلا».

«ولماذا لم تناقشه معها؟».

«لأنها لا تزال صغيرة».

«ولكنها ليست صغيرة. الا ترى ذلك؟ قل لها كل شيء. اعطها القوة اللازمة لمعرفة وتفسير ما حدث كما هو في الواقع. ليس لها شأن بهذا الأمر ولكنها تعتقد انها مسؤولة. الا ترى ذلك؟».

اطلق تنهدة عميقة واجاب بكآبة:

«يبدو اني لا ألتقي بصوفي الا قليلاً. لقد عشت طوال هذه السنين وانا اجهل هذه الامور. وانت خلال اربعة اسابيع انجزت كل ذلك!».

اجابت فكتوريا وقد شعرت فجأة بأنها ايضا محرومة من رعاية والديها:

«يقال بأن الدخيل على الجماعة يرى معظم اللعبة».

وهكذا تجعل الحياة محتملة لصوفي ولوالدها بينما حياتها هي اصبحت غير محتملة. ثم نهضت واطلقت ايماءة بائسة:

«عليّ ان اذهب فالآنسة سيباغل متسائل عما يجري داخل الغرفة».

مدّ البارون يده ليمنعها من الخروج ثم انزلها مرة اخرى وقال متضجّراً:

«اشكرك».

اجابت متضجرة أيضاً: «لا حاجة لذلك».

وقبل ان ينطق بكلمة تركته وانصرفت.

١١ - السجن والحرية

في الصباح التالي كانت فكتوريا تتناول طعام الافطار في المطبخ عندما سمعت صوت سيارة تدخل ساحة القصر. رفعت بصرها الى ماريا وقالت لها:

«من؟ هل هو الدكتور زيرمن؟».

«كلا يا آنسة انه شخص غريب. ربما احد الذين يسألون عن الآنسة سيباغل».

كانت نبراتها تتسم بالجفاء. امسكت فكتوريا بكأس قهوتها واصغت الى قرع باب قاعة الجلوس فتمتمت ماريا بعض العبارات غير اللبقة بالمجاملة ثم سارت باتجاه الباب وفتحته. اكملت فكتوريا احتساء قهوتها وبدأت بتنظيف المنضدة واذا بماريا تعود وتهتف قائلة:

«آه يا آنسة هناك رجل انيق المظهر في قاعة الجلوس. يقول انه احد اصدقائك».

تيبس فم فكتوريا وقالت بوهن:

«صديق لي؟ هل اعطاك اسمه؟».

«انه السيد هموند على ما اظن».

«مرديت!».

خفق قلب فكتوريا بشدة... وهكذا وجدها اخيراً. وهي غير مهيأة لحل مشاكلها معه. نهضت كأنها تمثال منحوت من الحجر وكانت ماريا تنظر اليها بشيء من القلق:

«هل هناك شيء، غير مرض؟».

«لا شيء».

«ماذا؟ هل انت خائفة من هذا الرجل؟».

«لست خائفة منه بل كنت اتمنى ان لا يحضر».

«يمكنني ان اقول له بأنك منحرفة الصحة وليس باستطاعتك رؤيته».

«سيأتي مرة اخرى. شكراً يا ماريا يجب ان اذهب».

ثم عضت شفتها وسألت:

«اين هو البارون؟».

«اظن يا آنسة انه خارج القصر اخذ صوفي معه لفترة ساعة من الزمن».

اومأت فكتوريا برأسها علامة الموافقة. طبعاً انه بحاجة ليأخذها بعيداً عن البيت وعن تأثير الآنسة سيباغل التي كانت ترغب بالانفراد بها والتي كانت تأمل بائسة بأن تتجاوب صوفي مع الهدف الذي كانت تسعى اليه.

مشت فكتوريا خطى ثقيلة باتجاه قاعة الجلوس. وما ان فتحت الباب حتى سمعت اصواتاً وما ان دخلته حتى شاهدت مرديت، لم يكن وحده. كانت مرغريت سيباغل معه. كانا يتكلمان مع بعضهما كصديقين قديمين. لكن مرديت توقف فجأة عندما شاهد فكتوريا ومشى نحوها بخطى واسعة وامسك بكتفيها باحكام. تمتم قائلاً:

«كدت اقتلك لانك تخليت عني بينما انا في امس الحاجة الى مساعدتك! هل عندك فكرة عما انتابني من القلق عندما حاولت العثور عليك؟ وكنت اصطدم في كل منعطف بهذه العجوز المحبة للخصام اعني عرّابتك!».

«عرابتي ليست عجوزاً شمطاء. وبكل صدق لماذا جئت تبحث عني انتهى كل شيء فيما بيننا. لقد بينت لك هذا الأمر بوضوح».

«ليس هناك من يستطيع ان ينهي كل شيء مع مرديت هموند».

ثم بدأ يكلمها بهدوء اكثر:

«حبيبتي فكتوريا انك لا تعنين ما تقولين. اوافق معك انني كنت شخصاً حقيراً عندما كتمت عنك انني كنت متزوجاً ولكنني لست قديساً وانا احبك».

«حسناً جداً، انا آسفة يا مرديت. انا لا احبك. كنت اظن ذلك لفترة من الزمن ولكنني كنت مخطئة».

عبر عن الغضب باطلاق صوت قوي. ثم استدار باتجاه مرغريت سيباغل.

«اتسمعين هذا الكلام يا مرغريت؟ لم تعد تحبني ابداً. انا الذي انفقت الأموال الطائلة بحثاً عنها والآن انها لا تريدني».

اصبحت فجأة لهجته الأميركية الجنوبية واضحة. ضاقت فتحتا عيني

الآنسة سياغل. وعلقت قائلة:
«ربما كان البارون الوسيم هو الملام!».
ترك هذا الكلام انطباعاً في نفس فكتوريا انها تعرفه قبل هذا اللقاء.
ورد مردبت على فكتوريا قائلاً: «البارون الوسيم . . . قولي لي من هو؟».
«هذا الكلام من الآنسة سياغل كان على سبيل الدعابة، لكن . . . انتما. . . هل تعرفان بعضكما بعضاً؟».
«بدون ريب!».
اومأ برأسه علامة الموافقة واضاف:
«عملت مرغريت فترة من الزمن في الولايات المتحدة الأميركية في مخزن هناك اليس كذلك يا عزيزتي؟ كنا صديقين».
انتاب فكتوريا الضجر من هذا الكلام فقالت:
«كم هو جميل معرفة كونكما صديقين!».
هتفت فكتوريا بغضب واردفت بصوت متوتر:
«اطلب منك مغادرة المكان فوراً. ليس من المفروض ان تكون هنا. لست ضيف البارون وحتماً لست ضيفي».
رد عليها مردبت بشكل حاسم وسريع قائلاً:
«تستطيع مرغريت ان تكفلني لدى البارون العجوز الرائع».
كانت لا مبالاته تجاه فكتوريا سبباً في اثارتها فصار دمها يغلي.
«وعلاوة على ذلك اني متيقن انك تلعبين لعبة الهر والفأر يا حبيبتي فلنتكلم في الوقائع كم ستقضين في هذه العزلة؟».
«حتى ينتهي عملي وعندما اغادر هذا المكان سأعمل في وظيفة اخرى في اي مكان آخر».
«ستعملين كزوجتي، كالسيدة مردبت ج. هموند الثانية».
«ماذا تعني؟».
«الا تعلمين اني سأقوم ببعض الاجراءات فأصبح رجلاً طليقاً مرة اخرى ونستعد للزواج. فما رأيك حول هذا الموضوع؟».
«هذا شأنك يا مردبت. ما تعمله مع زوجاتك لا شأن لي به ومهما قلت فلن اكون احداهن».
«تعتقدين اني خدعتك؟ هذه هي الوثائق بين يديك».

وضع يده في جيبه واخرجها منه. اطلقت فكتوريا تنهيدة وقالت:
«لا اريد يا مردبت ان اراها. اريد منك ان تفهمني. لقد انقطعت كل صلة فيما بيننا».
«ولماذا؟ قولي لي لماذا؟ لقد انجزت كل ما كنت ترغبين به. اليس كذلك؟».
«انا آسفة يا مردبت ولكنني لا احبك».
«هل تحبين شخصاً آخر».
«حتماً كلا».
اسرعت فكتوريا تنفي ذلك لكنها كانت مدركة لنظرة مرغريت سياغل المحدقة التي تشوبها الشكوك.
مسد مردبت بيده شعره البني، كان شاباً شاحب اللون واصبح الآن متورد الوجه غضباً وقال بنفاد صبر:
«حسناً جداً لا اعرف ما اقوله يا فكتوريا بعد كل هذه المصاعب التي تحملتها».
تجهم وجه فكتوريا وقالت:
«وبدون اية فائدة. كيف استطعت ان تجدني؟».
«كانت البارونة تيريزا على ما اعتقد تتحدث مع عرابتك في مأدبة صغيرة حضرناها معاً. وصادف ان استرقت السمع الى حديثهما. . .».
اومأت فكتوريا برأسها علامة الموافقة:
«هل خطر في بالك اني لو كنت ارغب في ابلاغك عن مكاني لكتبت اليك بهذا الشأن».
«لا يمكن ان تعامليني هكذا يا فكتوريا».
«ولكن هذا ما حصل».
القت نظرة عجل على مرغريت وقالت:
«لا اعرف اذا كانت الآنسة سياغل ترغب بأن تبقى في القصر ولكنني اخشى ان يكون لدي من الأعمال ما يمنعني عن مقابلتك، ارجو المعذرة، سأنصرف».
«كلا انتظري دقيقة واحدة يا فكتوريا».
وامسك مردبت بذراعها. في هذه اللحظة حضر البارون وبرفقته ابنته

واجال بصره في الجميع بهدوء.

كانت فكتوريا تحاول ان تسحب ذراعها من قبضة مرديت وبدا عليها انها متضايقة منه بصورة فظيعة. وكان البارون متحفظاً فقال:

«ماذا يجري هنا؟ من هو هذا الشاب يا آنسة فكتوريا؟».

لم يطلب مرديت من احد ان يقدمه فقال بلطف:

«انا مرديت ج هموند يا سيدي. والآنسة مونرو صديقة لي».

لم يخف تردده حول كلمة «صديقة» عن البارون. فتورد وجه فكتوريا خجلاً ورعباً. كانت صوفي تنظر الى فكتوريا نظرات تشوبها الشكوك وجاءت تقف قربها قائلة بنبرات تتسم بالقلق:

«اهذا هو رفيقك يا آنسة؟».

«السيد هموند هو شريك لا غير».

ثم نظرت بلطف الى صوفي قائلة:

«هل كانت نزهتك جميلة؟».

رفعت صوفي بصرها اليها وبدت كأنها تفهم فأومأت برأسها علامة الموافقة بحماس وقالت:

«آه، نعم، قال ابي يمكننا القيام بنزهة في يوم آخر. هل انت مستعدة للبدء بالدروس؟».

«طبعاً».

اتجهت عيناها نحو البارون لكن نظراته كانت فرحة. وادركت ان اي تفهم يمكن ان يحصل حول صوفي تلاشى بمجيء مرديت غير المتوقع. ما عساه يفكر؟ اية افكار سببت له هذا التعبير البارد؟ في اي حال ما شأنه بذلك؟ تساءلت فكتوريا بيأس، البارون هو البارون ويجب ان لا تنسى هذا الأمر. حدق بها مرديت بتحد وعنف:

«لا يمكنك ان تعني انك ستعملين في هذا اليوم. اريد ان اتحدث اليك، فكرت ان باستطاعتنا القيام بنزهة في السيارة».

اجابت فكتوريا بنفاد صبر.

«ارغب في تذكيرك بأن لدي عملاً يجب القيام به».

صفع قبضته براحة يده ورد بعنف:

«اعتبر عملك شيئاً تافهاً».

«ولكنني سأعمل».

كانت فكتوريا تتمنى ان تنتهي هذه المقابلة فغضب البارون يتزايد حتى انه قال اخيراً لمرديت:

«يبدو ان وجودك هنا في هذه اللحظة غير ضروري ولست متأكداً على الاطلاق من الذي دعاك الى قصر ريشتين لكنني هنا السيد وسأكون لك ممتناً لو تركت مستخدمتي تقوم بعملها».

احمر مرديت على حين غرة. لم يجرؤ من قبل اي شخص على تحدي مرديت هكذا. ولم يكن الآن في حالة نفسية تسمح له بأن يكون مهذباً. فبدأ يشتم بكآبة قائلاً:

«الى جهنم! جئت لأرى فكتوريا ولأطلب منها ان تتزوجني ولا اقبل بأن اطرد من قبل ارستقراطي متبجح. لا يملك شروى نقير».

عضت فكتوريا على شفتها وتمتمت:

«آه ارجوك».

وحاولت البدء بالكلام فاذا بالبارون يقاطعها ويقول بنبرة باردة:

«شكراً يا آنسة انني على تمام الاستعداد لمواجهة هذا الأمر بنفسي».

مشى ببطء باتجاه مرديت. ولو ان مرديت كان فارع الطول لكنه لم يكن بقوة بنية البارون كما لم تكن لديه الغطرسة التي كونتها السنوات الطوال من السلطة المتوارثة. قال له بوضوح:

«انا لا اعتصم بالصبر عندما اهان يا هموند لقد اغريتني بتلقينك درساً مفيداً في السلوك الحسن. التربية الجيدة وحسن التهذيب لها قيمة اكبر من الأعمال المادية الصرفة. لذلك اطلب منك بلطف ان تغادر هذا المكان. لقد تجاوزت الحدود ولا ارغب في ان احث الكلبين على مهاجمتك».

اشار الى كلبي الصيد اللذين كانا يراقبان بصمت هذا العرض واللذين نهضا بعد ان لمح اليهما بما يتعين عليهما ان يفعلاه، وراحا يهران معبرين عن استعدادهما للقيام بذلك. تساءلت فكتوريا وهي ترتعش لما اصابها من اضطراب عصبي لا سبيل الى كبحه اذا كانا في الحقيقة سيهاجمانه وبطريقة او بأخرى شكت في ذلك. نظر مرديت الى الحيوانين بنفور. بدون ريب لم يكن بمقدوره ان يحكم فيما اذا كانا عنيفين ام لا. ثم نظر الى مرغريت سيباخل. لكن مرغريت ابتعدت عنه وذهبت الى الدفاة لتدفىء يديها مظهرة

انه لم يكن بودها ان تكشف عن تورطها مع البارون في هذا الوقت. اطلقت فكتوريا تنهدة وقالت له بارتباك:

«ارجوك يا مرديث حاول ان تكون عاقلاً. لا يمكننا التحدث هنا، انت تعرف ذلك».

«انا اقيم في الفندق في ريشستين يمكننا التحدث هناك».

ثم نظر اليها نظرات يشوبها الاتهام وقال:

«انت التي جلبتني الى هنا».

«لم اقم بذلك ابداً».

«طبعاً قمت بذلك. توقعت ان اتبعك وان اجدك! اريد ان اعرف اية لعبة مجنونة تلعبينها؟ عرضت عليك الزواج وهذا ما كنت ترغبين به أليس كذلك؟».

كادت فكتوريا تجهش بالبكاء لنفاد صبرها فقالت بحزم:

«كلا يا مرديث قلت لك بأن كل شيء بيننا انتهى».

«هكذا تعامليني! تجريني الى هذا القفر الموحش عند منتصف الشتاء لتقولي لي ذلك!».

«انت يا مرديث جئت من نفسك».

قال البارون:

«كفى! هل ستغادر هذا المكان بطريقة سليمة ام التجيء الى وسائل اخرى؟».

قطب مرديث وجهه وهتف مناشداً اياها:

«تعالي يا فكتوريا الآن وتناولي طعام العشاء معي! هذا اقل ما يمكنك عمله!».

ترددت فكتوريا. اذا كانت ستعجل برحيل مرديث فعليها ان تعده بشيء فقالت له:

«حسناً جداً ربما في الليلة المقبلة».

«بل في هذه الليلة».

بسطت فكتوريا يديها:

«مستحيل!».

«حسناً انا موافق الى الغد».

اطلق مرديث ايماءة بليغة وقال:

«سأراك اذن، الى اللقاء يا مرغريت».

القت مرغريت عليه نظرة عجل حقودة قبل ان تنقل نظرها الى البارون وتحدق فيه وقالت بنبرة باردة:

«الى اللقاء».

ورجعت الى قرب المدفأة. بعد رحيله ساد سكون مشؤوم في الغرفة. لم تكن فكتوريا تجرؤ على النظر الى البارون وكانت متأكدة ان مرغريت كذلك. تساءلت كيف تفسر المرأة الاكبر سناً كيفية انصراف مرديث؟ وامسكت بيد صوفي قائلة:

«تعالي عندنا عمل يجب القيام به».

ذهبت صوفي معها بصورة آلية الى المكتب. وهناك استلقت فكتوريا متهكة على كرسي وكانت صوفي تراقبها بعينين قلقتين وسألتها:

«هل هناك شيء مزعج؟ هل هو ذلك الرجل؟ هل تخافين منه؟».

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه فكتوريا وهزت رأسها وقالت:

«طبعاً كلا يا صوفي لا تقفزي الى الاستنتاجات».

ثم اضافت بهدوء:

«من حق والدك محامي ان يفكر باسوأ الاحتمالات وبصراحة تامة اصبحت هذه المناقشات ترهقني».

«وهل انت مرهقة؟ اعني مرهقة لحد الرحيل».

«لماذا تذكرين هذا الأمر؟ فكرت انك ستسرين برحيلي».

«كلا ليس انت اريدك ان تبقي. انك في الحقيقة لطيفة واذا رغبت بأن تخيطي لي بعض الثياب فلا اجد مانعاً».

ارتسمت ابتسامة على وجه فكتوريا لهذه المجاملة قالت لها:

«حسناً انا مسرورة جداً بسماع هذا الاطراء. انه لجميل جداً ان يسمع المرء من الاخرين بأنه مرغوب فيه».

«كلمني ابي كل شيء عن امي. شعرت بالاسى نحوه».

«هل هذا صحيح؟».

«نعم. كان من العسير عليه جداً القيام بذلك، اعني انني صغيرة لاستوعب جيداً هذه الأمور بل اراد ان يحملها الي بكاملها».

«حسناً جداً».
«ابي رجل رائع».
«اعرف ذلك».
«هل تعتقدين انت ايضاً انه كذلك؟».
«افترض كذلك!».
«يجب ان لا تخشي شيئاً من قولك هذا. انه والدي وانا ابنته. واسمح لنفسي بأن اكون كريمة!».
ضحكت قليلاً ثم اردفت تقول:
«انه لأمر عجيب ظننت دائماً بانه يتسامح بقبولي عنده فقط. لم ادرك انه يحبني. لقد قال لي ذلك!».
«انني سعيدة جداً بخصوصك».
«كنت اتمنى ان تكونا اكثر سعادة وهذا جل مطلبي. انه هذا الرجل السيد همونند. . .».
«ليس بالتمام».
«الست قلقة من جهة ابي. سأكلمه بشأنك؟».
«شكراً يا صوفي ولكن هذا ليس ضرورياً».
نظرت اليها صوفي وهي مستغرقة بالتفكير:
«هل الآنسة سيباغل اذن؟ اذا كان الأمر كذلك اعرف شعورك. انني لا احبها. اتمنى ان ترحل!».
«ان الآنسة سيباغل ضيفة والدك الا يمكنك قبولها بهذه الصفة؟».
«اظن ذلك».
بدت صوفي لحظة مقطبة الجبين قبل ان تقول:
«انها تحاول دائماً ان تفوز بوالدي لنفسها. لم ترغب قط بوجودي قربه. انني بالنسبة اليها مصدر ازعاج كما كنت بالنسبة الى والدتي».
«والآن لا تكوني حمقاء يا صوفي. لا يمكن ان تبقى هنا الى الأبد».
«لا يمكن ان تمكث طويلاً الیس كذلك؟ عندئذ لا يظل في القصر الا نحن الثلاثة. طبعاً ماريا وغوستاف ايضاً».
«يجب ان ارحل في اخر الأمر».
«ولماذا؟ لا حاجة لي للذهاب لمدرسة داخلية. يمكنك ان تثابري على

تعليمي حتى اصبح في سن لا احتاج فيها الى الدروس».
«هذا غير ممكن يا صوفي. انا غير مؤهلة لتعليم فتاة اكبر سناً».
«لكنك صديقتي. اريدك ان تبقي معي وربما اجعلك تتزوجين والدي اذا وافقت على البقاء».
اخفت فكتوريا ابتسامتها بينما كان قلبها يتمزق. وقالت برزانة:
«هذا لطف منك يا صوفي. ولكنني لا اعتقد ان هذا الأمر محتمل الوقوع. لوالدك بدون ريب اهدافه الخاصة».
لوت صوفي قسمات وجهها لاضحاك فكتوريا:
«طالما انه لا يفكر بالزواج من الآنسة سيباغل».
نادت فكتوريا صوفي بنبرات حادة قائلة:
«تعالي يا صوفي. عندي شيء اريد ان اعرضه عليك. انه هدية كنت اشتريتها لك من قرية ريشتين قبل اسابيع».
عندما نزلت فكتوريا لتناول طعام العشاء وجدت ماريا في المطبخ منكبة على تحضير صينية طعام للبارون. اكملت ماريا تهيئة الصينية وبدأت تغرف الحساء وحاولت ايقاظ فكتوريا من استغراقها في التفكير الحالم فقالت لها:
«اتعرفين يا آنسة اين هي الآنسة سيباغل؟».
ارتسمت ابتسامة على ثغر فكتوريا:
«انا آسفة! من؟ الآنسة سيباغل؟ كلا لم ارها لماذا؟».
«يبدو يا آنسة انها اختفت. كانت تتناول طعام الغداء ثم لم ارها بعدئذ. سيدي البارون سأل عنها قبل ساعتين تقريباً لكنها لم تكن في القصر».
تجهم وجه فكتوريا:
«بالفعل؟».
«هل تظنين انها ذهبت خارج القصر؟».
«ولكن الى اين يا آنسة؟ تحتاج الى سيارة للذهاب الى قرية ريشتين ولم اسمع السيارة تتحرك هل سمعتها انت؟».
«كلا لم اسمعها».
«هل تظنين انها ربما ذهبت في نزهة؟».
«ربما قامت سابقاً بنزهات باعتبارها رياضة بدنية. ولكنها لا تتأخر لفترة طويلة خارج القصر. تقول ان الجو بارد جداً.

ذهبت الى غرفتها في بادىء الامر يا آنسة عندما سأل عنها سيدي البارون ولكنها لم تكن هناك».

اومأت فكتوريا برأسها علامة الموافقة وقالت:

«آه! هذا يدخل في نظرية صوفي اذ ربما تكون قد نقبت غرفة مرغريت كما فعلت في غرفتها. ماذا جرى لكلبي الصيد؟».

هزت ماريا كتفيها بلا مبالاة وبدأت تسكب الحساء لزوجها ولفكتوريا واشارت الى فكتوريا بأن تأتي وتجلس الى مائدة الطعام. وقالت بارتياح:

«هناك متسع من الوقت لحضورها يا آنسة».

كان واضحاً ان ماريا لم تكن مهتمة بمكان وجود مرغريت. انهمكت فكتوريا بتناول حسائها. لم تكن مرغريت من اللواتي يرغبن في الخروج مسافات بعيدة.

كانت الغرف الواسعة في نهاية الردهة فمشت بحزم نحوها. تشعر الآن بالبرد مع ان التمرين في صعود ادراج البرج والنزول منه ادفأها قليلاً وفكرة العنكبوت الفظيع الممتد هناك جعلت العرق يسيل في انحاء جسمها.

وصلت الى الباب واوشكت على فتحه عندما سمعت صوت انين توقفت فجأة فانتفض شعرها من الخوف. رجعت خطوة الى الوراء ووطدت العزم على تهدئة نفسها. هنالك تفسير منطقي لكل شيء. لكن جميع ما قصته عليها صوفي حول حبس امها في البرج وغيرها من القصص المشؤومة التي كانت سمعتها فيما مضى جاءت متدفقة نحو عقلها الواعي فاوقفت القشعريرة في جميع انحاء جسمها.

وبأنامل مرتجفة ادارت المقبض ولكنه كان متيبساً. مضت بدون ريب سنوات عديدة ولم يفتح والرطوبة جعلت الخشب يزداد تضخماً وهكذا تعطلت فتحته. ناضلت كثيراً واخيراً استطاعت بقوة وزنها ان تفتحه وان تصطدم بمنضدة مطبخ حقيرة شبيهة بالتي تستعملها ماريا في كل يوم. هناك في الزاوية قرب مستوقد فارغ كانت مجموعة من القطط الصغيرة.

اطلقت فكتوريا ضحكة خافتة. لم يدر في خلدها هذا. تركت الباب يغلق وراءها واجتازت الغرفة ببطء وانحنت قرب الحيوانات الصغيرة. كانت تموء بصوت عال. لمست رؤوسها وقالت:

«واين امكم؟ هل هنالك طريق آخر؟».

توقفت وراحت تجيل النظر في ما حولها. النوافذ جميعها مسدودة فلا يمكن لشيء ان يخترقها. حتى ان الزجاج كان غير مصاب باذى. الابواب مغلقة بأقفال مزدوجة فكيف يمكن للقطة ان تدخل وتخرج منها لرعاية صغارها؟ ثم رأت فجوة في الباب الضخم الخارجي يتسع للهرة لتشق طريقها منه واليه.

سرت لتحرياتها المضاءة بنور القمر وخطت نحو الباب بضع خطوات وكلها رغبة في ان تعود بالسرعة الممكنة نازعة عن افكارها جميع الشكوك. كانت آسفة لأنها اساءت الظن بصوفي مع انها دافعت عنها مراراً. ولسوء حظها وجدت الباب الضخم مغلقاً مرة أخرى بصورة محكمة وعندما حاولت فتحه امتنع عليها ذلك فانتابها الفزع. وقالت وقد تميزت غيظاً، يا للباب اللعين!

ضربت الارض بقدميها وهي نافدة الصبر وراحت تجول حول المطبخ كانت هنالك قطع كثيرة من الخشب ولكن لم تجد واحدة منها ملائمة لما هي بحاجة اليه. والخشبة التي وجدتها ستكون عديمة النفع لفسادها. هل بامكانها فتح مصاريع النوافذ والنوافذ التي وراءها وتخرج منها بهذه الطريقة؟ هل يمكن ان يكون خشب مصاريع النوافذ فاسداً ايضاً؟ ومع انها حاولت ازاحة الاقفال ذهب تعبها ادراج الرياح. فالذي ثبت هذه النوافذ والابواب جعلها محكمة بصورة لا يستطيع المهاجمون ان ينجحوا في اقتحامها والدخول الى القصر. الحيوانات وحدها تستطيع ولوجها جيئة وذهاباً من خلال الفجوة. اما هي فلم تكن صغيرة الجسم لتزحف عبر الفجوة. في تلك اللحظة سمعت صوت نبش بالاظافر ورأت القطة الام عائدة من جولتها بحثاً عن الطعام فكشفت عن اسنانها لفكتوريا التي ادركت ان الهرة كانت برية. اصبحت الآن حبيسة مقفل عليها في مطبخ غير مستعمل وفي جناح مهجور ورفقتها قطة متوحشة معادية. تتالت افكار كثيرة في ذهنها. فكرت بكتابة رسالة على ظهر القطة على أمل ان يجدها شخص ما ولكن هذا كان بدون ريب غير ذي فائدة اذ ربما لا يشعر بها احد وربما مزقت القطة يديها لو حاولت لمسها.

ما عساها تفعل؟ اخيراً جرت المقعد باتجاه الفجوة. كان من الصعب وضع اي ثقل وراء هذا المقعد الثقيل ولكن المحاولة كانت ضرورية. وبعد

ان رفعت طرفه جرت نحو الباب تدفع المقعد امامها فاصطدم بالباب بقوة ووسع الفجوة التي تنفذ منها القطة بضع بوصات فقط لا تفي بالغرض. كان عليها ان تحاول هذه الطريقة في الطرف الآخر من المقعد. قامت بعدة محاولات وشعرت بالدموع تسيل من مقلتيها كان المقعد الخشبي الطويل ضخماً يصعب تحريكه ونقله. راحت تلهث من الفزع. ادارته عمودياً وجلست عليه وقد اخذ التعب منها مأخذه. نظرت الى الباب بغضب وبعينين مغرورقتين . . .

اتسعت فتحتا عينيها ذهولاً ووثبت فوق المقعد الخشبي الطويل فلم يؤد الاصطدام الى خرق الخشب فوق الفجوة التي تنفذ منها القطة بل ادى الى نتيجة جيدة اخرى. ولو ان الابواب كانت صلبة وقاسية فان ما يطوقها كان معطوباً بالرطوبة كما كانت اشياء اخرى لم تثبتها جيداً.

كانت ضرباتها المستمرة على القسم الاسفل من الباب قد ادت الى تليين المسامير المعلقة بالمفاصل واصبح الآن نصفها معلقاً خارج الدعائم. دفعت بالمقعد الخشبي الطويل جانباً وتشبثت بالمفصلة العليا. تكسرت اظافرها باندفاعها السريع ولكنها لم تكن تهتم بيديها.

انفكت المفصلة تماماً وبقيت معلقة بالباب وبسرعة عالجت الاخرى انها صعبة المنال لكن احتياجها على درجة عظيمة مما جعلها تحرز قوة جبارة وبلمح البصر اصبح الباب طليقاً. كان قفله اكثر صعوبة فلم يكن هنالك مقبض. اخذت تشد بقوة على المفاصل لتجعل الباب يتحرك. صفرت الريح بضراوة عبر الشقوق فبردت اصابعها واوصالها بشدة واصبحت جليدية وبدأت ترتعش من هواء الليل القارس. لا بأس بذلك طالما انها بدأت تحرك الباب بيديها ولو ببطء، وما هي سوى دقائق حتى كان باستطاعتها ان تشق طريقها بالضغط خارج الغرفة.

ما رأت السماء من قبل في ابهى جمالها كما هو حالها في تلك الليلة كما ان الريح الشرقية الباردة كانت جذابة. وبذراعين وكتفين اصابها الالم مشت بخطى واسعة سريعة عبر الطريق الى الساحة الداخلية ومن هنالك عبر الابواب الرئيسية. اذا صادف ان هذه الابواب كانت موصدة فعليها ان تذهب الى المطبخ على امل ان ماريا وغوستاف غير نائمين.

وكم كان ذهولها عظيماً عندما وجدت اضواء غرفة الجلوس الكبرى

تتلألأ عبر الساحة واضواء في كثير من الغرف. لم تر قط القصر متألقاً هكذا بالانوار من قبل وجرت الى المدخل بلهفة. من الممكن انهم افتقدوها؟ كان الوقت متأخراً لكن ربما ظنوا انها في غرفتها. اندفعت تفتح باب الردهة واذا بغوستاف يمرّ من هناك آتياً من المطبخ فحدّق بها وهو لا يصدق عينيه.

«يا الهي اين كنت يا آنسة؟».

ثم بدأ بسيل غير منسجم من العبارات باللغة الالمانية اغلقت فكتوريا الباب الخارجي ومشت بسرعة نحو النار التي كانت تتقد بصورة زاهية في المدفأة. دارت حولها بسرعة مدفئة جسمها بينما كان غوستاف يفوه بكلام لا يعبّر عن مجاملة ثم استدار وتوارى من حيث جاء.

جلست فكتوريا في المقعد الخشبي الطويل وتطلعت الى الباب الضخم الذي كان يقود الى الجناح الشمالي. بدأت ترتجف خوفاً سيمضي وقت طويل قبل ان تفكّر بالذهاب اليه مرة اخرى. تساءلت اين فريتز وهيلكا لم يكونا في مكانهما المعتاد قرب المدفأة وفيما اذا كان البارون قد اصطحبهما معه لنزهة خارج القصر، اللهم الا اذا كان يفتش عنها واخذ الكلبين معه. طبعاً ماريا كانت تعلم انها لم تترك القصر. فجأة حدثت ضجة عارمة في باب الردهة واذا بالشخص الذي كانت تفكر فيه ينتصب واقفاً على الباب ويحدّق فيها بغضب لا يصدق عينيه.

كان غوستاف يحوم وراءه. ولاحظت فكتوريا ان الرجلين يرتديان معاطف غليظة واحذية عالية الساق كأنهما آتيان من الخارج.

لوح البارون بيد مهيبة الى غوستاف ليذهب بعيداً ومشى بخطى واسعة في غرفة الجلوس واغلق الباب وراءه بعنف. نزع معطفه والقى به وجاء ووقف بجانبها يقلب النظر فيها بعينين متقدتين وسألها بعنف وبلهجة واضحة:

«على نحو صحيح ما هو الدور الذي تلعبينه يا فكتوريا؟».

حدقت فيه فكتوريا بوهن وبفزع فرأته يتميّز غيظاً. بدأت الدموع تسيل بغزارة من مقلتيها وتنساب على خديها. تغير صوت البارون بصورة مفاجئة وهتف «فكتوريا!».

ثم طوقها بشدّة بين ذراعيه ضاغطاً صدره الى وجهها. ادركت عندئذ

انه كان يرتجف هو ايضاً وان الذراعين الملتفتين حولها كانتا ذراعين حارتين نازعتين الى الاستئثار بحبه واهتمامه. امرها بلطف قائلاً:

«لا تبكي يا حبيبتي. الا تعلمين انني كنت مسعوراً بالخوف على سلامتك؟ لا يمكن ان تتصوري شعوري وانا اراك كشبح قرب مدفأتي!».

شعرت فكتوريا بأنها مصابة بدوار لكنها ادركت انه يجب ان تتحرر من عناقه قبل ان ترتكب حماقة. والتصاقها هكذا به اظهر لها كم كانت سبل دفاعها ضده هزيلة وانها لو تمادت بمزيد من العناق لتحكمت انفعالاتها بعقلها. لكن البارون لم يكن ليتركها تفرّ من بين يديه بسهولة. تركها في تلك الفترة تتحرر من قبضته. وجلس ينظر اليها بعينين كئيبتين. كانت ذكريات الماضي تحيط بالبارون احاطة السوار بالمعصم ولم يكن يستطيع ان ينظر الى الامام وبالاضافة الى ذلك كان يبدو لها ان مرغريت سيباغل كانت المرأة المحظوظة وبلا شك انها مصممة في الحصول على ما ترغب.

انصرفت فكتوريا الآن تتلمس طراوة خديها متسائلة اذا كانت يداها الوسختان قد تركتا لطخات سوداء لم تفكر بأي شيء حتى الآن غير الدفء وفي اي مكان تجده. قال لها بجفاء:

«قولي لي! على نحو صحيح اين كنت؟».

احنت فكتوريا رأسها وبدأت تتكلم وهي مضطربة:

«كنت اتحرّى...».

هتف البارون فجأة بصوت اجش وردّ عليها بقوة:

«كنت تتحرين! هل انت مجنونة! هل تعتبرينني مغفلاً؟».

«لا اعرف ماذا تعني؟».

«اتظنين يا فكتوريا انني احتمل كل شيء، وان باستطاعتك ان تفعلي مثل هذه الحماقات بدون ان تتعرضي لعواقب وخيمة؟».

«ذهبت افتش عن شيء وحدث امر منعني من الرجوع!».

اطبق البارون قبضته. وتراءى لها انه يتميّز غيظاً. لكن لماذا؟ في أيّ مكان فكر انها كانت؟ اعاد سؤاله بنبرة تحكّم:

«اسألك مرة اخرى... اين كنت؟».

«احاول ان أقول لك».

كان البارون يرغي ويزبد. ويتنفس بصعوبة.

«هل تنكرين بأنك نزلت الى القرية لتتناولي طعام العشاء مع ذلك الرجل هوموند؟».

حدقت به فكتوريا بذهول:

«طبعاً انكر ذلك، كيف يمكنني ان انزل الى القرية؟».

رد البارون بحدة مشيراً بأنامله.

«قد تكونين التقيت به في الطريق او رتبت امورك لتلتقي به هناك ترتيباً ماهراً».

«لا تكن مغفلاً! انني لا أقوم بمثل هذا العمل. كنت حبيسة في مكان مغلق».

مس البارون شعره الكثيف مساً رفيقاً.

«اتوسل اليك يا فكتوريا لا تفعلي هذا معي!».

«افعل ماذا؟».

«ان تذهبي الى هذا الرجل المدعو هوموند! فكرت بأنني لا استطيع ان اتزوج ثانية. فكرت بأنني لا استطيع ان اطلب من اي امرأة ان تقاسمني خرائب حياتي ولكنني كنت مخطئاً. قد يكون الامر مختلفاً معك وقد يكفيك حبي. لا استطيع ان ادرك انني اقف على مقربة من امرأة اسهر عليها واهيم بها وهي متيمة بحب رجل هو بدون ريب غير جدير بها!».

كان قلب فكتوريا يخفق بقوة وبسرعة ويتفتت لوعة واسى والبارون يتكلم منتزعاً الكلمات من فمه بصورة ملتوية. غضبه واساه وعدم تصديقه لروايتها لا بسبب خوفه ان تكون سلطته قد استبيحت مرة اخرى بل من الغيرة. هل كان ذلك ممكناً؟ هل كان بالحقيقة ممكناً! وبدون ان تكتشف اجوبته على هذه الاسئلة حدقت به الآن فكتوريا وهي لا تستطيع ان تصدّق اذنيها، تأوه وامسك بمعصمها وجرها الى مقربة منه يغمغم كلمات مبهمة ثم وارى وجهه في عنقها.

«آه نعم يا فكتوريا انني رجل وكرجل لا اتركك ترحلين اشعر بأنك لست غير مبالية بي رغم محاولاتك بأن تخففي وطأة مغازلتنا وجعلها علاقة عابرة وبينما اقسمت ان لا اتفوه بذلك لامرأة اخرى اريدك زوجة لي!».

وضعت فكتوريا يديها في كل جهة من وجهها ونظرت اليه وهي لا تصدق نفسها وهمست بصوت اجش.

«آه يا هورست انك اكثر الرجال افتقاراً الى دقة الملاحظة! الم تكن تعرف بأني لم افكر قط بتركك مهما قررت بشأني؟».

كان هناك صمت مطبق في الغرفة الواسعة عندما حدث العناق الذي هدم كل الشقاء الذي اصابهما سابقاً. واخيراً قال:

«حسناً جداً يا حبيبتي اصدقك انك لم تكوني مع هموند في هذه الامسية ولكن ارجوك ان تقولي اين كنت؟».

اخذت ذراعاه تشدانها.

«خلال تلك الساعات التي كنت افتش عنك فيها كنت اتوق لقتلك او لضربك او لأيذائك كما آذيتني اما الآن وقد وجدتك واستطيع ان امسك بك واضمك الى صدري واشعر باسرع خفقة من خفقات قلبك على قلبي اعرف بأني لا ارغب الا ايذاء الشخص الآخر ومهما يكن ذلك الشخص الذي تجرأ على حبسك».

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه فكتوريا ووضعت اصبعها فوق شفتها قالت بلطف:

«بالحقيقة لم يحبسني احد والكائنات الوحيدة التي يجب توبيخها هي حفنة من الجرذان».

حدّق بها البارون وهو لا يفهم ما تقوله.

شرحت له بسرعة كيف وجدت نفسها صدفة سجينة في المطبخ القديم في الجناح الشمالي. كان يصغي بارتياب الى قصتها ومن حين لآخر يوقفها عن الاسترسال في الحديث ليطرح عليها سؤالا حتى وصلت الى الجزء المتعلق بنجاتها فهز رأسه مضطربا وقال:

«اتدركين انك لو لم تنجحي لكان من المحتمل ان تموتي هناك!».

«اعرف ذلك. لننسى هذا الامر. لقد نجوت وهذا المهم في الموضوع».

«لكنك لم تبيني لماذا ذهبت الى الجناح الشمالي».

«كان عملي في الحقيقة سخيفاً. لم تجد الآنسة سيباغل قبل العشاء وقالت لي ماريا انك سألت عنها فذهبت لافتش عنها».

«في الجناح الشمالي».

«اعرف. قلت ان هذا العمل مني كان سخيفاً، دارت فكرة في رأسي وهي...».

«بدأت افهم كان مرد ذلك اقوال صوفي عن البرج الشمالي حيث قالت ان امها مسجونة هناك. اليس كذلك؟».

«اكنت تعرف هذا الامر؟».

«آه نعم اظن ان هذه طريقتها لهدم الصورة المؤلمة التي لديها عن السا. اظنها حاولت ان تعتقد بأنها عوقبت لما اقترفته يداها».

«فكرت بذلك انا ايضاً وفكرت بما ان صوفي لم تكن تحب مرغريت فقد تحاول ان تجعل من الحقيقة المصطنعة واقعا حقيقياً؟ آه لا اعلم. بعد الدقائق الاولى صرت لا اعتقد بأنها قد تقدم على مثل هذا العمل... ولكن الشكوك كانت قد حسمت. ذهبت لانقاذ مرغريت حتى لا اسمع مرة اخرى اموراً تتعلق بسلوك صوفي... كنت حمقاء!».

«كل ما في الأمر انك وفية بصورة مؤثرة وربما خيالية ايضاً».

«آه يا هورست هل هذا حقيقي كل شيء يبدو في هذا اليوم غريباً».

«انت حقيقة وانا حقيقة وحبنا هو حقيقة. هذا هو المهم في الموضوع. وحديثك عن مرغريت اعطاني فكرة».

«وما هو هذا الامر؟».

«الم تتساءلي لماذا كنت واثقاً من انك تناولت طعام العشاء مع هموند في هذه الليلة».

«طبعاً اين كنت؟».

«سأشرح لك ذلك. ذهبت الى المطبخ عندما علمت بأنك تناولت طعام العشاء كنت ارغب بأن اراك لاتحدث معك حول هموند...».

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه وكان بريق عينيه لطيفاً.

«في اي حال لم تكوني هناك كما تعلمين. قالت ماريا يمكن ان تكوني ذهبت لغرفتك فذهبت لابحث عنك. طرقت الباب وعندما لم تجيبي دخلت. ولكنك لم تكوني هناك. لم اكن اعرف اين يمكن ان تكوني. في قاعة الجلوس؟ في غرفة نوم صوفي؟ حاولت ان اجدك فيها ولكن بدون نتيجة حتى في غرفتي لم اجدك».

شعرت فكتوريا بالدفء يغمر جسمها. حتى الآن كان من الصعب عليها ان تعتقد ان غرفة هورست ستكون غرفتها ايضاً. استدار ووضعها فوق ركبته عندما جلس في المقعد الخشبي الطويل ذي الذراعين والظهر

العالي قرب المدفأة ثم استطرد قائلا:

«كنت اوشك ان ايأس- مرغريت ما تزال مفقودة في ذلك الوقت ولا اعرف اين كانت كل منكما. اما انت فكنت موضع اهتمامي الرئيسي لأن مرغريت بامكانها ان تعنى بنفسها».

«الا استطيع ان اعنى بنفسي؟».

«انك متهورة كثيراً! كنت خائفاً ان افكر في المكان الذي قد تكونين فيه. وبعدئذ بعد ان اخذنا الكلبين انا وغوستاف وفتشنا المساحة المحيطة بالمنزل والتابعة له رجعت مرغريت. بدا عليها عدم الاهتمام بالامر وعندما بينت مخاوفي من جهتك وضغطت عليها للكشف عن المكان الذي كانت فيه قلبت الموضوع وقالت انك نزلت الى قرية ريشستين لتري هموند».

«ماذا؟».

«نعم هذا ما قالته لي وما جعلني اتأكد من انك هناك فأخرجت السيارة فوراً وقدتها ونزلت الى القرية لاجد هموند فقيل لي انه رحل بسيارته ولا يعرف احد متى سيعود. قالت لي النادلة بأنه كانت في الفندق في تلك الليلة شابة برفقته وهذه كانت مرغريت التي تناولت طعام العشاء معه واستفادت من عدم وجودك لتضع ستاراً على اعمالها».

كانت فكتوريا تصغي لحديثه بانتباه شديد فهتفت:

«ولكنها كانت تعلم انها ستنكشف».

تجهم وجه البارون.

«هل ستنكشف؟ اشك في ذلك- بحسب رأيي كانت مجازفة محسوبة في مثل هذه الدرجة المتدنية من الحرارة لا يتسنى للنساء الحظ في البقاء على قيد الحياة اذا وقعن في المنحدرات فوق الثلوج وربما فكرت انهم سيعثرون عليك في اليوم التالي مدفونة في ثلج ساقته وكدسته الريح».

«ولكن من اين عرفت اين كنت؟».

«لم تعرف بالضبط بل بصورة غير مباشرة. جعلتني اعتقد بأنها كانت تتجوّل حول القصر طوال تلك الفترة وشاهدت سيارة واقفة على بعد قليل من هنا في الطريق المؤدي الى الجبل. هل تعتقدين ان مرغريت تعرف هذا الرجل هموند.. اعني بصورة حميمة اكثر مما ظهر عليهما؟».

«لا يمكنني الاجابة على ذلك. قبل وصولك اظهرا انهما صديقان قديمان».

«آه! بدأت الامور تتضح لم تشأ مرغريت ان اعرف ذلك».

«ربما لا».

«انت دائماً مستعدة لحماية المذنب. الا تدركين انني قبلت بصحة الانباء بأنك كنت مع هموند ولم اقم بتحريات اخرى وكنت لا تستطيعين النجاة».

«يجب الا تفكر بعد الآن بهذا الامر».

«يجب ان ترحل مرغريت في الصباح. وسيقودها غوستاف الى المحطة».

«حسناً جداً».

«سوف ترسل دعوات لهذا الرجل هموند. سأعرف كيف اتصرّف معه لو جاء الى هنا مرة اخرى».

عانقته فكتوريا وتمتمت بمرح:

«نعم يا سيدي البارون».

«اسمي هورست.. قوليه».

«سمعاً وطاعة يا حبيبي هورست».

واحنى رأسه لها مرة اخرى. سائلا:

«قولي هل تقبلين بما سأعرضه عليك؟ هل انا مناسب لك عندما اقدم لك الحياة الخشنة التي اعيشها؟ انك فتاة في ريعان الشباب وفاتنة وريشستين مقرّ قديم مروع».

حدقت فكتوريا فيه بفترة وهتفت بسخط:

«احب هذا القصر وانت تعرف ذلك. كيف تكون الحياة جميلة بدونك؟».

ربت هورست فون ريشستين على خدها متعجباً:

«اريد امرأة معي مثلك. قد ابيع في سبيلك القصر والممتلكات واذهب معك حيث تشائين».

«كل ما ابتغيه موجود هنا. هل تعتقد ان صوفي تمانع في هذا الشأن؟».

«صوفي اصبحت حليفتك وانت تعرفين ذلك. انها بحاجة اليك اكثر من مربية، كصديقة وكأم لم تعرف حنانها قط».

تفحص وجهها المتوهج برقة:

«عندما رأيتك لأول مرة في ساحة المحطة مرتبكة بسبب وقوعك في الثلج فكرت بأن اعيدك فوراً الى انكلترا. كنت خائفاً من شيء لا افهمه وكنت ارغب ان لا اكون طرفاً فيه. حاولت ان اجبرك على التخلي عن وظيفتك حتى تمنيت ان تنجح صوفي في محاولاتها لحملك على الرحيل».

ربت على شعرها بلطف وقال:

«وفي ذلك الصباح اخذتك الى ريشتين اتذكرين ذلك؟ وبعدئذ اختلف الأمر تماماً؟ اظن بعد زواجي من السا وما تبعه من مآسي كنت خائفاً من الوقوع في مأساة اخرى اذا تزوجت ثانية وهذا لم يمنعني من ان ارغب فيك... هل تسامحينني؟».

ادارت فكتوريا يدها حول عنقه وفي داخلها حرارة عجيبة من الاحاسيس.

احبها هذا الرجل الرائع ورغب فيها. وكان عليها ان تظهر له طوال حياتها انه لا يهمها الماضي عندما يكون المستقبل ملكهما...